

مجلة الصحافة

العدد (37) | السنة التاسعة | ربيع 2025

من السبق إلى التآني..
العلوم الاجتماعية وإعادة
اكتشاف الصحافة



معهد
الجزيرة للإعلام

محتويات العدد

48... المجتمع العربي والصحافة الاستقصائية..
جدلية الثقافة والسلطة والمهنة
مصعب الشوابكة

58... الإعلام الرياضي في الجزائر..
هل أصبح منصة لنشر خطاب الكراهية؟
فتيحة زماموش

64... كيف تعيد غزة تعريف
العمل الصحفي
آنا ماريا مونخاردينو

70... أن تحكي قصص الأطفال
من غزة!
ريما القطاوي

76... كيف يصوغ الإعلام الغربي كارثة
المجاعة في قطاع غزة؟
فداء القدرة

82... من «إعلان وفاة» إلى «مرثية»..
كيف تطور النعي إعلامياً؟
المحفوظ فضيلي

88... ظاهرة «تجنب الأخبار».. هل بتنا
نعرف أكثر مما ينبغي؟
وسام كمال

06... دينامية «الاقتباس»: التأثير المتبادل
بين الصحافة والعلوم الاجتماعية
أنس الشعرة

12... إجابات كبيرة في أماكن
صغيرة أو نقد تاريخ السلطة!
عمار الشقيري

18... تقاطعات الصحافة والعلوم
الاجتماعية في الميدان
محمد أحداد

24... الصحافة ومناهج البحث
الاجتماعية
أحمد نظيف

30... تدريس الصحافة والعلوم
الاجتماعية.. خصوصية راسخة؟
سعيد أبو معلا

36... فيليب ماير وولادة «صحافة الدقة»..
قصة كتاب غير الصحافة الأمريكية
محمد زيدان

42... الفضاء الأنثروبولوجي والاستشراق
الإعلامي
تيسير أبو عودة

الصحافة والعلوم الاجتماعية.. المهنة وهي تعيد «اختراع» نفسها

تسمح بإجراء مقارنة مع المنافسين المباشرين لا على أساس مهني بل بهاجس تجاري محض، ثم هناك آثار التشبع من التغطيات الإعلامية للأحداث الكبرى وما قد ينتج عنه من مخاطر نزع السياق، مثلما يحدث اليوم في حرب الإبادة الجماعية في فلسطين.

لقد جرّدت هذه التحولات الجديدة الصحافة من وظائفها التقليدية في المحاسبة والمراقبة وحق الجمهور في المعرفة والمساهمة في تكريس التجارب الديمقراطية، وكان ضروريا على وسائل الإعلام التي تقاوم إغراءات السلطة والمال، أن تبني نموذجا جديدا يقترب من العلوم الاجتماعية والإنسانية دون أن تتبناها كحقل لديه خصوصيته.

هذا الانفتاح على العلوم الاجتماعية والإنسانية يتيح هوامش جديدة للصحفيين؛ لتأطير الأحداث المعقدة والحساسة ضمن سياقاتها الحقيقية، وتحسين جودة التغطية ودقتها، وبناء زوايا معالجة أصيلة، والتشكيك في رواية السلطة بكل أشكالها، وبفضل الاقتباس من أدواتها، تعمل هذه الرؤية على تجديد ممارسة المهنة ذاتها.

هيئة التحرير

قبل سنتين تقريبا، كان منتدى كليات الصحافة في العالم العربي المنظم من معهد الجزيرة للإعلام، يناقش موضوع انفتاح الصحافة على العلوم الاجتماعية كضرورة مهنية مضادة للرؤية الرأسمالية التجارية لإنتاج الأخبار.

لم يكن استخدام كلمة «انفتاح» عشوائيا، بل مؤطرا بالجدل المستمر حول حدود الصحافة والعلوم الاجتماعية وطرق الاستخدام وتوَجُّس الأكاديميين من الطبيعة الاختزالية للصحافة، وخوف الصحفيين من التعقيد والتجريد والتعالي على الوقائع من لدن علماء الاجتماع، وهو توتر وجد صداه داخل الجامعات، وفق دراسة أجرتها الدكتورة وفاء أبو شقرا، الأستاذة في كلية الإعلام في الجامعة اللبنانية، حيث لا يزال تدريس العلوم الاجتماعية والإنسانية مطوقا بمقاربة أكاديمية جامدة.

من وجهة نظر العلاقة بين علماء الاجتماع والصحفيين، فإن التأثير المتبادل ينطلق من دافع التطور التكنولوجي الذي رسخ ممارسات صحفية جديدة سمتها الأساسية السرعة والإيجاز والخضوع لسلطة الجمهور وضغوطات السلطة.

يمكن حصر تأثير هذه التحولات في ارتباط قياس تأثير الصحافة بمعايير جديدة مثل الأرقام والمبيعات وحصة سوق الإعلانات التي

كتاب المجلة



محمد أحماد

صحفي مغربي بمعهد الجزيرة للإعلام، صدر له «يد في يد في النار» حول الصحافة الاستقصائية.



عمار الشقيري

كاتب وصحفي أردني، ويعمل حالياً صحفياً أول في مجلة حبر الإلكترونية.



أنس الشعرة

طالب ماجستير مغربي بالمعهد العالي للإعلام والاتصال بالرباط، وحاصل على زمالة الجزيرة.



محمد زيدان

محرر وكاتب في معهد الجزيرة للإعلام، ترجم عدة كتب إلى العربية أبرزها: «إسرائيل: تاريخ السلطة والمعرفة» لإيلان بابيه..



سعيد أبو معلا

كاتب ومحاضر فلسطيني في الصحافة بالجامعة العربية الأميركية.



أحمد نضيف

صحفي وباحث تونسي، مهتم بالترجمة والعلوم الاجتماعية، مترجم في مجلة اليونسكو بباريس.



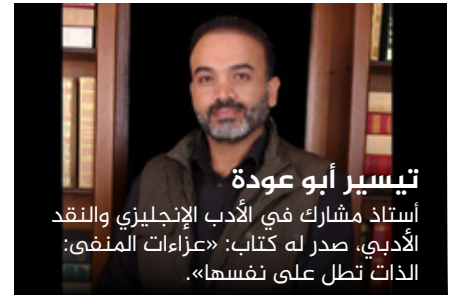
فتيحة زماموش

إعلامية وباحثة جزائرية، حاصلة على شهادة الدكتوراه في علوم الإعلام والاتصال.



مصعب شوابكة

صحفي ومنتج استقصائي في شبكة الجزيرة.



تيسير أبو عودة

أستاذ مشارك في الأدب الإنجليزي والنقد الأدبي، صدر له كتاب: «عزاءات المنفى: الذات تطل على نفسها».



فداء القدرة

صحفية فلسطينية من غزة، تكتب قصصاً وتقارير باللغة الإنجليزية لصالح منصات ومواقع إعلامية دولية.



ريما القطاوي

كاتبة صحفية مستقلة، وطالبة ماجستير صحافة وإعلام بالجامعة الإسلامية في غزة، صدر لها «كلنا على سفر» رواية.



آنا ماريا مونخاردينو

صحفية مستقلة مقيمة في لندن، تعمل على قصص التحيز الإعلامي خاصة في فلسطين.



وسام كمال

صحفية مصرية بشبكة الجزيرة الإعلامية، حاصلة على دكتوراه في الصحافة من جامعة القاهرة.



المحفوظ فضيلي

صحفي مغربي، خريج المعهد العالي للإعلام والاتصال بالرباط، اشتغل بشبكة الجزيرة وقنوات الحرة.

مجلة الصحافة

العدد (37) السنة التاسعة ربيع 2025

مجلة فصلية تصدر عن معهد الجزيرة للإعلام / شبكة الجزيرة الإعلامية

المشرف العام: إيمان العامري

رئيس التحرير: منتصر مرعي

هيئة التحرير: محمد أحداد / محمد خميسة / محمد زيدان / محمد الأغا

تصميم: إدارة الإبداع في شبكة الجزيرة الإعلامية

التدقيق اللغوي: إبراهيم منصور، أحمد تحسين

مجلة الصحافة Aljazeera Journalism Review

<http://institute.aljazeera.net/ar/ajr> 

AJR_Arabic@ 

www.facebook.com/aljazeerajournalismreview 

https://www.instagram.com/ajr_arabic 

ajreditor@aljazeera.net 



إصدار
جديد
لمعهد
الجزيرة
للإعلام



دينامية «الاقتباس»: التأثير المتبادل بين الصحافة والعلوم الاجتماعية

أنس الشعرة

تقارب هذه المقالة مسألة «الاقتباس» بوصفها ضرورة إبستمولوجية ومنهجية، وتدعو إلى تجاوز الثنائية الصارمة بين الصحافة والعلوم الاجتماعية من خلال تبني منهج «التعقيد» الذي يسمح بفهم تداخلهما ضمن تحولات البنى الاجتماعية والمهنية. كما يجادل المقال بأن هذا التفاعل لا يُضعف استقلالية أي من الحقلين، بل يُغنيهما معرفيًا، ويمنح الصحافة مرونة أكبر في إنتاج المعنى داخل عالم تتسم فيه المعلومة بالسيولة والتدفق.

الدوريات الميدانية في عمل الصحفيين اليوم، من شأنها تفسير جملة من آليات الاقتباس التي تؤطر عملهم، وتجسد ذلك التداخل البيئي بين الحقول.

تعتمد الصحافة على نتائج العلوم الاجتماعية لتفسير مختلف الظواهر التي تتعاطى معها، وتلجأ في كثير من الأحيان في إطار وظيفتها «التبسيطية» وإيصال المعلومة إلى اختزال العديد من المفاهيم ووضعها في دائرة غير منسجمة مع دلالاتها المرادة منها، وهو ما يثير ردود فعل رافضة لهذا «الاختزال»، وهذا هو جوهر الاعتراض على هذه الممارسة.

في ضرورة الاقتباس:

تعتمد الصحافة على نتائج العلوم الاجتماعية لتفسير مختلف الظواهر التي تتعاطى معها، وتلجأ في كثير من الأحيان في إطار وظيفتها «التبسيطية» وإيصال المعلومة إلى اختزال العديد من المفاهيم ووضعها في دائرة غير منسجمة مع دلالاتها المرادة منها، وهو ما يثير ردود فعل رافضة لهذا «الاختزال»، وهذا هو جوهر الاعتراض (4) على هذه الممارسة، بيد أن هذا الاعتراض ينطلق من خلفيات تفسيرية منافية لدينامية الحقول، كما أن

فقط، هكذا في المجمل ما تخلص إليه النقاشات بينهم. (2)

لن يكون الجدَل مثيراً في ظل أحكام مترسبة حول ما يمكن أن تكون عليه الصحافة اليوم إذا انزاحت عن وظائفها التقليدية المعهودة التي استقرت بالقوة والفعل، وهو ما تعجز عنه الرؤى المتمترسة حول «نقاء العلوم». (3) وردّ أو ر فض فاعلية الاقتباس.

كما لن يكون النقاش جديراً - في سياق المقالة - لدحض تلك الحجج؛ لأن التأثير والتأثير تحصيل حاصل، ويزداد حضوره كلما تحرر «العقل» الإبستمولوجي من فكرة «النقاء المنهجي» ومما قد يعيق دينامية «الاقتباس». وعلى هذا الأساس، فإن قضية الصحافة والعلوم الاجتماعية من القضايا التي ينبغي النظر فيها ضمن سياق إعادة إنتاج أبنية نظرية جديدة تكتسي فيها علاقة الحقولين تواشجاً نظرياً ومنهجياً، قياساً على التحولات في البنى الاجتماعية وفي التحولات الرقمية اليوم.

في غمرة هذه الدعوة، ينبغي التركيز على ديناميات الاقتباس لا التماهي - كما قد يفهم - لأن «الاقتباس» هو ما يمكن من إعادة النظر وتقليبه بوصفه ممارسة ضرورية لإبراز هذه التقاطعات الحيوية المثمرة.

ولإعطاء بُعد عملي لهذا التوجّه / الدعوة فإن المناهج الاجتماعية وما تتيحه من أدوات، تساهم في تفسير العديد من المعطيات وتاويلها وإعادة إنتاجها بوصفها حقائق اجتماعية تعدّ مدخلاً حقيقياً للاقتباس وللتعاطي النظري والمنهجي والمفاهيمي مع هذه العلاقة.

ومن هذا المنطلق؛ فإن النظر في الممارسات المهنية لمختلف

إن العلاقة بين الصحافة والعلوم الاجتماعية تخضع لصيرورة جدلية متلازمة ومستمرة في آن؛ فهي محكومة على الدوام بضرورة الغايات والوسائل، وهو ما يجعلها تتقاطع دائماً على مستوى الأدوات التي يستثمرها الباحث والصحفي. وفي صميم هذه العلاقة تنبثق مسألة «الاقتباس» التي تشكل نقطة التقاء بينهما، بوصفها آلية إبستمولوجية، وليست مجرد عملية نقل وانتقال للمعلومات فقط، بل هي جزء أساس في فهم تطورها وتفاعلها. ومن هذا المنطلق، يحاجج هذا المقال عن «الاقتباس» بوصفه ضرورة لفهم التطورات الحاصلة في الصحافة والعلوم الاجتماعية اليوم، ومن جهة أخرى يسعى إلى إبراز محددات العلاقة، من خلال التمايزات الدلالية والمنهجية والميدانية بين الحقولين.

في طبيعة الاقتباس ودلالاته:

تحضر مسألة «الاقتباس» بوصفها آلية إبستمولوجية بين الحقول والعلوم بصفة ضرورية. ولما كان جوهر العلوم هو «الاقتباس» فإن الأنساق العلمية الكبرى التي تفرغت وراء أزمة العلوم الأوروبية (1) قد خضعت لهذا «الاقتباس» متأثرة بصلابة العلوم الطبيعية ومناهجها ونتائجها، هكذا تطورت العلوم الاجتماعية أيضاً، ولقد كانت فكرة «الاقتباس» مرحلة مفصلية في بنائها.

على هذا النحو، امتد نقاش وصل حد السجال بين الباحثين في حقل العلوم الاجتماعية وغيرها حول مدى التأثير الذي تمارسه هذه العلوم على حقول أخرى مثل: الصحافة التي تستمد حدودها (تعريفها) من جهة الممارسة

أصبح الحقل الصحفي ذاته مجالاً لإنتاج ظواهر من داخل بنيته، وهو ما جعله محلاً للدرس والتفسير والتنبؤ، وهو ما يعني أنه يفرز ويساهم في إنتاج ديناميّة معرفية تساهم في إغناء حقول العلوم الاجتماعية.

هذا التوجه يمنع من رؤية البنى الداخلية التي تفرزها الممارسة الصحفية وتسهم في إعادة قراءة ظواهر وتفسيرها بناء على نتائج أعمال صحفية بلورت إعادة إنتاج حقائق اجتماعية أو ثقافية أو غيرها.

إنّ «الاقتباس» ليس فعلاً «تسويغياً» لمحاولة وضع الصحافة داخل دينامية رمزية تعيد ترتيب ما هو أعلى وما هو أسفل، إنها هيمنة ضيقة فقط! تتأسس على ضرورتين:

الضرورة المنهجية: تتمثل في الأدوات التي تستعمل في الإنتاج الصحفي اليوم، من سرد ومقابلات ومنهجيات التحليل الكمي والكيفي.

الضرورة السيوسولوجية: أصبح الحقل الصحفي ذاته مجالاً لإنتاج ظواهر من داخل بنيتها، وهو ما جعله محلاً للدرس والتفسير والتنبؤ، وهو ما يعني أنه يفرز ويساهم في إنتاج دينامية معرفية تساهم في إغناء حقول العلوم الاجتماعية.

تشكل هذه الضرورات دلالات مركزية في فهم «الاقتباس» وتطوير تفاعلاته أيضاً، بما يجعل من الصحافة حقلًا تتقاطع فيه المقاربات والنظريات، كما يسمح ذلك بإعادة إنتاج هذه الأدوات واختبارها بما يضمن ماهية الصحافة المرنة، أي تلك التي تخضع لدينامية متفاعلة بفعل السياقات والتحويلات.

«التعقيد» وديناميات الحقلين:

لفهم التحولات التي تسري بين العلوم والحقول خاصة في العلوم الإنسانية والاجتماعية،

ينبغي استحضار بُعد «التعقيد» (5) - بوصفه منهجاً مؤسساً - في التعاطي مع موضوع الصحافة والعلوم الاجتماعية أساساً، وعليه يتأسس أي نقاش بينهما.

لقد كان روبرت بارك (Robert Park) ومؤسس مدرسة شيكاغو للسوسيولوجيا مؤمناً بأن «الأخبار هي شكل أولي من أشكال المعرفة؛ فهي بمثابة إعلان عن الأحداث بدلاً من تفسيرها، كما أنها تمثل معرفة (غير منهجية، حدسية، أقرب إلى الحس السليم) بدلاً من المعرفة المعمقة بشيء ما (شكلية، تحليلية، منهجية، علمية)».

حدسية، أقرب إلى الحس السليم) بدلاً من المعرفة المعمقة بشيء ما (شكلية، تحليلية، منهجية، علمية)».

من هذا الاقتباس، تأتي دعوة إعادة التصور الذي بني عن الصحافة وإعادة النظر فيه، قياساً إلى «التعقيد». هكذا ينفتح منعطف آخر في طبيعة هذه العلاقة، ويعيد أيضاً تعريف الصحفي اليوم، ليس بوصفه ناقلاً للمعلومة وفقط، بل فاعلاً فيها، خصوصاً في ظل «سيولة» المعلومة وتدفقها؛ إذ أصبح بمكنة الجميع تلقي المعلومة وحملها، بيد أن الصحفي هو من يستطيع وضعها في سياقها وقراءتها وتحليلها، وهي كلها ممارسات من صميم المعرفة، لكنها معرفة محددة بالإطار المهني الذي يشغل فيه الصحفي.

الأدوات: اشتراك في «الفعل» لا في «الصفة»:

يتطابق البحث بين الصحفي والباحث في العلوم الاجتماعية من جهة فهم الواقع ومحاولة تفسيره، هذا هو جوهر عمل الباحث الذي يتقصد «الفعل الاجتماعي» بوصفه «تصوراً وتمثلاً» أي ظاهرة ينبغي تحليلها وتفسيرها وتأويلها، أما الصحفي فيوجد أحياناً في قلب الفعل والحدث الذي يُترجم إلى: الإخبار أو التبليغ. هكذا يتميزان في مقاربة الواقع الاجتماعي وفي النتائج أيضاً: العلوم الاجتماعية تنتج معرفة تراكمية، بينما تتوقف نتائج الصحافة على التأثير، وهذا يجد ذاته ملمحاً جوهرياً ينبغي التفكير فيه وفي مسألة العلوم الاجتماعية خاصة في السياق العربي؛ أي عن مدى تأثيرها في المجتمع.

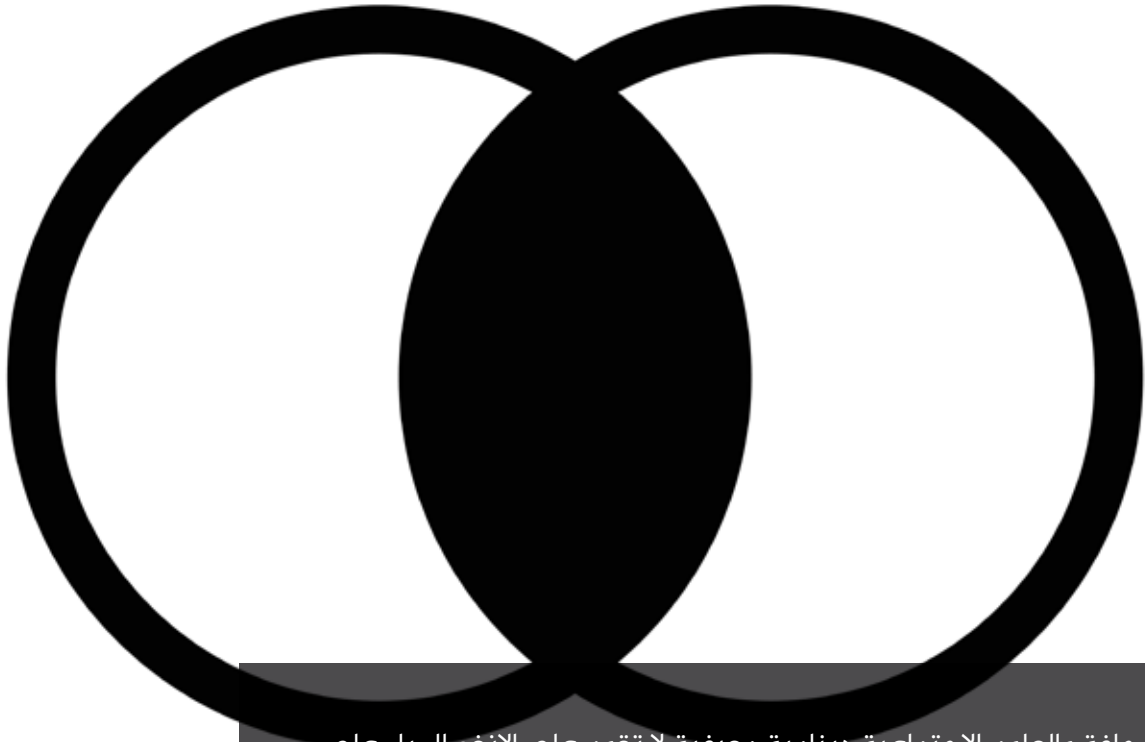
إن استحضار هذا البعد يعني الانتصار للنزعة الاتصالية أو الاستمرارية ومنازعة المدرسة الانفصالية، وهو مدخل لتقويم علاقة العلوم الاجتماعية بالصحافة، بكونها جزءاً لا يتجزأ من صيرورة العلوم أو على الأقل مختبراً حيويًا لتجريب مجموع النظريات والأدوات التي تميز العلوم الاجتماعية.

لقد كان روبرت بارك (Robert Park) (6) الصحفي ومؤسس مدرسة شيكاغو للسوسيولوجيا مؤمناً بأن «الأخبار هي شكل أولي من أشكال المعرفة؛ فهي بمثابة إعلان عن الأحداث بدلاً من تفسيرها، كما أنها [الأخبار] تمثل معرفة (غير منهجية،

لا تُغَيَّب مسألة استعمال الأدوات الاجتماعية سواء في الصحافة أو العلوم الاجتماعية ما يطلح عليه بـ«سلطة المنهج»؛ فالضرورة الإستراتيجية والمنهجية تقتضي من الباحث التقيد بالأدوات المستعملة في البحث، وهو ما يضعه في امتحان صعب حدّ التناقض أمام الظواهر الاجتماعية التي قد تنفلت من «سلطة المنهج»، إلّا أنّ الأداة في الاستعمال الصحفي تخضع لمحددات مرنة - نسبيًا - ومن جهة أخرى تخضع لإطار وتحديد مسبق (الخط التحريري، الضغوط السياسية والإكراهات الاقتصادية، الإكراه الزمني) فالشرط هنا معياري وليس قيمي، إذ يظل الأول مقرونًا ورهينًا بالصحافة، بينما الثاني هو مُحدد ملازم لمهنية العلوم الاجتماعية.

يتطابق البحث بين الصحفي والباحث في العلوم الاجتماعية من جهة فهم الواقع ومحاولة تفسيره، هذا هو جوهر عمل الباحث الذي يتقصد «الفعل الاجتماعي» بوصفه «تصورًا وتمثيلًا» أي ظاهرة ينبغي تحليلها وتفسيرها وتأويلها، أمّا الصحفي فيوجد أحيانًا في قلب الفعل والحدث الذي يُترجم إلى: الإخبار أو التبليغ. هكذا يتميّزان في مقاربة الواقع الاجتماعي وفي النتائج أيضًا.

إنّ هذا التمايز أساس لفهم جذور التنازع بين الصحافة والعلوم الاجتماعية، بيد أنّ ما هو ثابت بين الحقلين هو الاشتراك في استثمار أدوات البحث الاجتماعي، أي من حيث الاستعمال والاستثمار، وهو ما يعني على مستوى التوصيف أنهما يشتركان في «الفعل» لا في «الصفة»؛ وهكذا نجد الإنتاجات والمحتويات الصحفية تستثمر الأدوات الاجتماعية في معالجة العديد من الظواهر مثل استعمال المقابلات والملاحظة والسرد الاجتماعي والأنثروبولوجي في القصة الصحفية الإنسانية وتحليل الوثائق ... وغيرها من الأدوات التي تسعف الصحفي في أداء عمله بعمق وبتأثير.



بين الصحافة والعلوم الاجتماعية دينامية معرفية لا تقوم على الانفصال بل على التقاطع (تصوير: شترستوك).

خاتمة:

إنّ عملية «الاقتباس» بين الصحافة والعلوم الاجتماعية ليست فعلاً ميكانيكياً للنقل بين الحقول، بل هي إعادة بناء وتأويل مستمر للمعرفة، حيث تتجاوز الحدود التقليدية بين العلوم؛ فالصحافة في سعيها إلى فهم الواقع وتفسيره تستفيد من أدوات البحث الاجتماعي، ولكنها تتعامل معها ضمن سياقات

مرنة وقيمة تختلف عن تلك التي تهيمن على الممارسات العلمية الأكاديمية.

وبينما تسعى العلوم الاجتماعية إلى بناء معرفة تراكمية معمقة، تهدف الصحافة إلى التأثير الفوري وإيصال المعلومة للجمهور، مما يعكس التفاوت في النتائج بين الحقلين، إلا أنّ هذا التفاوت لا يمنع

من التفاعل البيئي المثمر. وبناءً عليه، يمكننا القول إنّ «الاقتباس» بين الحقلين يعكس حقيقة حيوية هي أن المعرفة تتطور وتتوسع عبر التفاعل المتبادل بين الحقول، وهو ما يسهم في إغناء كل منهما بشكل مستمر، ويعكس ضرورة التفكير النقدي في استثمار الأدوات المعرفية المشتركة وفي العلاقة بين الحقلين أيضاً.

” المراجع

(1) يتناول الفيلسوف الألماني إدموند هوسرل (Edmund Husserl)، في كتابه: أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندنالية، الأزمة التي يمر بها الفكر الأوروبي المعاصر، من خلال تحليله لتراجع دور العلوم الطبيعية في فهم المعنى الحقيقي للوجود الإنساني، حيث عبر عن قلقه من أن العلوم الحديثة قد تبتعد عن أسئلة المعنى والحقيقة الوجودية، متأثرة بالمادية والتقليدية.

(2) Bastin, Gilles. “Le journalisme et les sciences sociales. Trouble ou problème?” Sur le journalisme 5, no. 2 (2016).

(3) Bastin, “Le journalisme et les sciences sociales,” 48.

(4) Bastin, “Le journalisme et les sciences sociales,” 53.

(5) Morin, Edgar. Introduction à la pensée complexe. Paris: Points Essais, 2014.

(6) روبرت بارك، من أشد المدافعين عن الإطار المؤسسي للصحافة الاجتماعية، فالصحافة وفقاً لمنظوره، تساعد في تحقيق التوازن بين الأفراد والمؤسسات، طبق نظرية النسقية في الصحافة، ويرى أن الإعلام جزء من النظام الاجتماعي الأكبر، ويعمل كوسيط يربط بين مختلف مكونات المجتمع. وقد بدأ حياته المهنية كصحفي ثم مدرسا للفلسفة وعلم الاجتماع، في جامعة هارفارد، لمزيد من التفاصيل حول نظريته، العودة إلى كتاب الصحفي والسوسيولوجي، الذي نشر بالفرنسية في عام 2008، وقدم له إيدوي بلينيل: <https://le-journaliste-et-le-sociologue-robert-e-park-9782020970976/www.sa-autrement.com/livre>

(7) Weaver, David H., and Maxwell E. McCombs. “Journalism and Social Science: A New Relationship?” The Public Opinion Quarterly 44, no. 4 (1980): 485.

إجابات كبيرة في أماكن صغيرة أو نقد تاريخ السلطة!

عمار الشقيري

هناك تاريخ السلطة، وهناك تاريخ المجتمع. بين هذا الحدين، بحث عمار الشقيري عن إجابات كبيرة في قرية صغيرة في الأردن هي «شطنا»، متقصياً عن الأسباب السوسيوإلوجية لهجرة سكانها إلى المدن الكبرى. بعد فحص المصادر التاريخية وإجراء المقابلات، سرد قرناً كاملاً من تاريخ القرية بمنظور «التاريخ المصغر».

دخلتُ مع زميلي المصوّر - ضدفة - قرية "شطنا" التي تقع شمال الأردن، وبدا الأمر غريباً للوهلة الأولى؛ فقد خلت القرية من السيارات والمارة، ولم يكن فيها دكاكين مع انتشار الكثير من البيوت - خاصة القديمة منها - وأربع كنائس، ومركز صحي، ومدرسة ابتدائية، وكان واضحاً أن القرية موجودة منذ قرن، لكن أين ذهب الناس؟ كان هذا سؤال القصة الصحفية التي سنعمل عليها لاحقاً.

عدنا إلى المكتب وعثرنا في الأرشيف على الأخبار التي تمتدح هدوء القرية المعزولة في الريف، وتستعرض جمال البيوت المبنية على طراز بناء بدايات القرن العشرين، وخبراً وحيداً عن هجرة سكان القرية إلى المدن.

عدنا مرة أخرى إلى شطنا، يقودنا دليل من سكانها يعمل فني تمديدات صحية، من أجل البحث عن إجابة للسؤال التالي: لماذا هاجر أهل القرية؟

أجاب أحد المختير - وكان أبناؤه قد هاجروا قبل سنوات - على أسئلة الصحافة التقليدية التي طرحناها عليه، لكن السياق الأوسع للإجابة ظل لغزاً؛ إذ بدا أن الإجابات كانت محكومة بظرف شخصي، ولا تقدم تصوراً أوسع لأسباب الهجرة. بالإضافة إلى ذلك، كانت تلوح كفضيحة للبحث فكرة تزايد هجرة المسيحيين من بلاد الشام، ثم تناسلت أسئلة أخرى: متى ولماذا جاء الناس للسكن في القرية بالأصل، وما الذي طرأ حتى هجروها؟

لم نجد أي إجابة ناجزة في كتب التاريخ، وكل ما كان بين أيدينا هو تخمينات بعض السكان أن أسلافهم قدموا للسكن في القرية أواخر

حكم الدولة العثمانية للمنطقة؛ أي أن فرصة الوصول إلى شاهد يروي قصة بداية الاستيطان في القرية كانت معدومة.

”
أجاب أحد المختير، وكان أبناؤه قد هاجروا قبل سنوات، على أسئلة الصحافة التقليدية التي طرحناها عليه، لكن السياق الأوسع للإجابة ظل لغزاً؛ إذ بدا أن الإجابات كانت محكومة بظرف شخصي، ولا تقدم تصوراً أوسع لأسباب الهجرة.“

هكذا سيصبح السؤال التالي مهما: ما طبيعة العلوم الاجتماعية التي يمكن أن تكون مفيدة في العمل على هذه القصة؟

كان تاريخ بلاد الشام في الفترة العثمانية قد كتب بمجمله من وجهة نظر السلطة أو المركز أو طبقة الأعيان، وأقصى تبعاً لذلك تاريخ أماكن كثيرة بعيدة عن ولايات الدولة الرئيسية، وتاريخ أناس كثيرين ليسوا من طبقة الأعيان، وكانت منطقة جنوب سورية العثمانية، التي تضم الآن الأردن ومنها قرية «شطنا»، واحدة من المناطق التي لم يؤرخ لها بشكل واف. لكن، ومنذ التسعينيات ظهر في الأردن جيل مؤرخين أردنيين وثقوا تاريخ الحياة الاجتماعية في فترة نهايات الحكم العثماني للمنطقة

وبدايات تأسيس الدولة، متناولين مناطق صغيرة مثل: تاريخ مدينة، أو مجموعة قرى، أو ناحية، ومعتمدين على مقابلات شفوية مع كبار

السن، وقوائم جباية الضرائب للدولة العثمانية، ودفاتر ديون التجار، وسجلات الكنائس والمحاكم الشرعية. (1)

كانت هذه المصادر الأقل أهمية في كتابة التاريخ من قبل المؤرخين في العالم، لكن منذ العقد السابع من القرن الماضي توسع الاعتماد عليها في بعض فروع التاريخ مثل: «التاريخ المصغر» أو «التاريخ من الأسفل» وهي حقول تهتم بكتابة تاريخ الناس لا السلطة، وتاريخ مجموعة صغيرة من الناس في منطقة صغيرة، وتاريخ الهوامش لا مراكز الحكم، وتعتمد على «البحث عن إجابات الأسئلة الكبيرة في أماكن صغيرة»، و«حمل المجهز بدل التلسكوب» وعلى عدم اعتبار الأفراد مجرد دمي مهما قلت أهمية أدوارهم داخل المجتمع؛ إذ يمكن أن تخرج الإجابات الكبيرة من الأدوار الصغيرة. (2)

هكذا لعبت واحدة من دراسات المؤرخين الأردنيين هؤلاء دوراً حاسماً في تقديم معلومات حول وقت وسبب استيطان الناس قرية «شطنا»، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ حيث جاؤوا بحثاً عن المراعي لمواشيهم التي شكلت واحدة من ركائز نمط إنتاج أهالي المنطقة في تلك الفترة. وقدّم بحث غير منشور وموجود في قسم الأنثروبولوجيا في جامعة اليرموك شمال البلاد - حيث تقع القرية - شرحاً مفصلاً حول التركيبة الاقتصادية لسكان القرية، وتوثيقاً لبدايات هجرة سكانها منذ منتصف القرن الماضي.

أنجز البحث طالب ماجستير قبل أكثر من ثلاثين سنة، وأقام في القرية أياً ما من أجل إحصاء عدد السكان، والمهاجرين منهم، وتوثيق



تأسيس الكثير من مؤسسات الدولة الحكومية، والكثير من شركات القطاع الخاص ومصانعه.

لا يتعلق الأمر فقط بتقديم معلومات أولية للقصة الصحفية، بل استخدام أحد أدوات البحث التاريخي للمساعدة في بناء الكثير من القصص والبروفيلات الصحفية، وبدأت إمكانية حمل مجهر يظهر التفاصيل الصغيرة بشكل أكبر من أجل التمهيد والبحث في حيز أضيق من مجتمع قرية، ممكنة. نقتب في تعليقات ناصر الدين الأسد التي دونها على هوامش كتب قرأها قبل نصف قرن، وقلبت لساعات طويلة في دفتر يوميات أبو الموسيقى الشعبية الأردنية توفيق النمري، وساهمت المعلومات المدونة في دفتر تخرج مدرسة ثانوية في قرية نائية في الغور الأردني في الوصول إلى عناوين الخريجات في سنوات سابقة، ثم الكشف عن سبب حصولهن على المراتب الأولى في امتحان شهادة الدراسة الثانوية العامة.

قبل سنتين، بدأ الآلاف من الشباب الأردنيين يهجرون قراهم في رحلة طويلة تشمل عبور ثلاث قارات وسبع دول، وكانت الرحلة محفوفة بالمخاطر، تتطلب منهم السفر برّاً وهم محاطون بأفراد العصابات المسلحين، ربما الأشد فتكاً في أمريكا الوسطى، أما الوجهة النهائية فهي المكسيك، ثم الدخول بطريقة غير نظامية إلى الولايات المتحدة الأمريكية. كانت محافظة عجلون التي تقع

السكان، والمهاجرين منهم، وتوثيق أماكن سكن المهاجرين في المدن والعاصمة.

نقتب في تعليقات ناصر الدين الأسد التي دونها على هوامش كتب قرأها قبل نصف قرن، وقلبت لساعات طويلة في دفتر يوميات أبو الموسيقى الشعبية الأردنية توفيق النمري، وساهمت المعلومات المدونة في دفتر تخرج مدرسة ثانوية في قرية نائية في الغور الأردني في الوصول إلى عناوين الخريجات في سنوات سابقة، ثم الكشف عن سبب حصولهن على المراتب الأولى في امتحان شهادة الدراسة الثانوية العامة.

“فئات أخرى” و “آخرون”

بعد الكثير من المقابلات، وفحص المعلومات الواردة في كتب التاريخ والدراسة غير المنشورة توصلنا إلى سرد قصة أكثر من قرن من عمر القرية، منذ بداية الاستيطان ثم هجرتهم إلى العاصمة والمدن الكبيرة ليكونوا قريبين من أماكن أعمالهم الجديدة في الوظائف الحكومية والجيش والقطاع الخاص، بعدما تركوا مهنة الأسلاف في الزراعة وتربية المواشي. إنه تحول يمثل جزءاً من تغير نمط الإنتاج في المجتمع الريفي الأردني من الإنتاج الزراعي إلى الإنتاج الخدمي الذي بدأ مع

لقد نشأ «التاريخ المصغر» بصفته واحدا من العلوم الاجتماعية معتمدا في الكثير من الأحيان على الأنثروبولوجيا والاقتصاد، ومرتبطا بمرحلة تراجع الاستعمار، وظهور أصوات المجتمعات التي لم تحظ بتمثيل جيد في العالم مثل: السود والنساء والأقليات العرقية وسكان الهوامش، وقد ظهر محاولة من هذه الفئات لاكتشاف ماضيها وإعادة بنائه (تصوير رشا المغربي - شترستوك).

فيها "عجرة" وسط البلاد تشهد أعلى نسبة من المهاجرين، ولم يكن الحصول على مقابلات منهم خلال رحلتهم، أو ممن وصلوا إلى الولايات المتحدة سهلاً، لكن الحاجة إلى اختيار القصص المناسبة لوضعها في التقرير حتمت علينا ذلك.

بعد الكثير من المقابلات، وفحص المعلومات الواردة في كتب التاريخ والدراسة غير المنشورة توصلنا إلى سرد قصة أكثر من قرن من عمر القرية، منذ بداية الاستيطان ثم هجرتهم إلى العاصمة والمدن الكبيرة ليكونوا قريبين من أماكن أعمالهم الجديدة في الوظائف الحكومية والجيش والقطاع الخاص، بعدما تركوا مهنة الأسلاف في الزراعة وتربية المواشي.

يساعد الجو العام أمام هذه المعطيات على القول - وهذا ما حدث في الأخبار بالفعل - إن البطالة المرتفعة في الأردن تدفع الشباب للهجرة إلى الولايات المتحدة بحثاً عن العمل؛ إذ ارتفعت أرقام البطالة في السنوات الأخيرة، وثمة الكثير من الدراسات الاقتصادية والاجتماعية التي تبحث في موضوع البطالة، تركّز كثيراً على أرقام المتعطلين عن العمل

ونسببتهم وعدم وجود مشاريع لتشغيلهم، مع رسومات بيانية تعتمد على مسوح دائرة الإحصاءات العامة توضح توزيع العاطلين عن العمل من حيث عمرهم وتحصيلهم العلمي وجنسهم.

لكن عجلون لم تكن الأعلى من حيث نسب البطالة مقارنةً ببقية المحافظات الأردنية من أجل القول إن البطالة هي السبب الوحيد لهذه الهجرة. (3) أما الرقم اللافت - الذي نوقش بشكل هامشي في أحد الدراسات الاقتصادية في فقرتين فقط - فيشير بالاستعانة بالمسوح الإحصائية إلى وجود أعلى نسبة عاملين بأجور منخفضة في المحافظة مقارنةً بالمحافظات الأخرى. وعلى هذا النحو وإلى جانب قصص معطلين عن العمل، جرى تضمين قصص عن عاملين تركوا وظائفهم في القطاع الحكومي والخاص؛ وذلك لتمثيل دوافع الهجرة بشكل أدق. كانت أداة البحث عن الحالات المختلفة في المسوح هي التقليد العريق لدى المشتغلين في حقل «التاريخ المصغر»، وبعبارة أخرى، يركز هذا الحقل من العلوم الاجتماعية على النسب والأرقام التي تظهر في الرسوم البيانية المضمنة في الدراسات تحت بند: «فئات أخرى». لقد نشأ «التاريخ المصغر» بصفته واحداً من العلوم الاجتماعية معتمداً في الكثير من الأحيان على الأنثروبولوجيا والاقتصاد، ومرتبطة بمرحلة تراجع الاستعمار، وظهور أصوات المجتمعات التي لم تحظ بتمثيل جيد في العالم مثل: السود والنساء والأقليات العرقية وسكان الهوامش، وقد ظهر محاولةً من هذه الفئات لاكتشاف ماضيها

وإعادة بنائه. (4) وهذه أداة مهمة في العمل الصحفي من أجل البحث في فئة: "آخرون" التي تنتشر كثيراً. إنهم أولئك الذين ذكرنا مرّة بهم الروائي الفلسطيني إميل حبيبي في روايته المتشائل: «قلت إنك لم تحسّ بي أبداً، ذلك أنك بليد الحسّ يا محترم، فكّم من مرّة التقيت اسمي في أمهات الصحف؟ ألم تقرأ عن المئات الذين حبستهم شرطة حيفا في ساحة الحناطير (باريس حالياً) يوم انفجار البطيخة؟ كل عربيّ ساب في حيفا السفلى على الأثر حبسوه، من راجل ومن راكب، وذكرت الصحف أسماء الوجهاء الذين حبسوا سهواً وآخرين، آخرون - هؤلاء أنا - الضحف لا تسهو عني، فكيف تزعم أنك لم تسمع بي؟ إني إنسان فذ فلا تستطيع صحيفة ذات اطلاع وذات مصادر وذات إعلانات وذات ذوات وذات قرون أن تهملني، إن معشري يملؤون البيدر والدسكرة والمخمرة، أنا الآخرون».

على الدوام، مثلما قد حدث في الصحافة حدث في العلوم الاجتماعية؛ هناك أكثر من رواية ومعالجة للحدث، واحدة تأخذ زاوية السلطة أو الأكثرية أو المركز، وأخرى تبتعد عن كل ذلك وتحاول معالجة الحدث من زاوية أخرى، زاوية من يعيشون في الهامش، أو من يعيشون في المركز ويصنفون بأنهم هامش، تحت "فئات أخرى". لهذا سيكون السؤال التالي دائماً ضرورياً: أي العلوم الاجتماعية يصلح لتوظيفه في الصحافة؟

مثلما قد حدث في الصحافة حدث في العلوم الاجتماعية: هناك أكثر من رواية ومعالجة للحدث، واحدة تأخذ زاوية السلطة أو الأكثرية أو المركز، وأخرى تبتعد عن كل ذلك وتحاول معالجة الحدث من زاوية أخرى، زاوية من يعيشون في الهامش، أو من يعيشون في المركز ويصنفون بأنهم هامش، تحت «فئات أخرى» (شترستوك).



”المراجع

(1) مثل كتاب جورج طريف، «السلط وجوارها 1846-1921»، وكتاب هند أبو الشعر «إربد وجوارها: ناحية بني عبيد، 1850-1928» وكتاب عليان الجالودي، «قضاء عجلون 1864-1918» وكتاب نوفان السواريه «عمّان وجوارها 1864-1921».

(2) Magnússon, Sigurður Gylfi, and István M. Szijártó. What Is Microhistory? Theory and Practice. (2) 2013, London: Routledge.

(3) وفقًا لدائرة الإحصاءات العامة لسنة 2023: كانت عجلون تحتل المركز السابع في نسبة المتعطلين عن العمل إلى نسبة القادرين على العمل من بين 12 محافظة أردنية.

(4) Reflections on the historiography of the twentieth century from the perspective of the twenty-first century/Iggers Georg/University of Buffalo 2017.



تقاطعات الصحافة والعلوم الاجتماعية في الميدان

محمد أحداد

يمثل الميدان ذروة التقاطع بين الصحافة والعلوم الاجتماعية والإنسانية، ومع تعقد الظواهر، يرتدي الصحفي في الكثير من الأحيان عباءة السوسيولوجي دون أن يتخلى عن جوهر المهنة في المسائلة والبحث عن الحقائق المضادة لكل أشكال السلطة. إن هذا «اللجوء»، يحسن جودة التغطية ويقدم سياقات أساسية، وقد يفضي إلى تغيير جذري في زوايا المعالجة.

قضى الكاتب موريس برينتون أكثر من أسبوعين في فرنسا شاهد عيان على الثورة الطلابية سنة 1968، ونقل بنفس مناضل وبأدوات عالم اجتماع - مع أنه حدد في مقدمة الشهادة أفق الكتابة في الأخبار لا التحليل - يوميات الاحتجاجات موظفا التقاطعات بين الشهادة الحية والخلفية المعرفية لشرح ما جرى بالتحديد، وكيف انتقلت الثورة من مدرجات الجامعة إلى الساحات العامة، مع الملاحظة العميقة للكتابات على الجدران والهويات السياسية والأيدولوجية للمشاركين، والتأريخ اليومي للأحداث (1).

يكتب برينتون: «ليس من قبيل الصدفة أن تبدأ «الثورة» في كليتي علم الاجتماع وعلم النفس بجامعة نانتيير؛ أدرك الطلاب أن علم الاجتماع الذي يُدرّسونه كان وسيلة للسيطرة على المجتمع والتلاعب به، وليس وسيلة لفهمه بهدف تغييره. وفي خضم ذلك، اكتشفوا علم اجتماع ثوريا. رفضوا المكانة المخصصة لهم في الهرم البيروقراطي الكبير؛ مكانة «الخبراء» في خدمة المؤسسة التكنوقراطية، المتخصصين في «العامل البشري» في المعادلة الصناعية الحديثة. وأثناء ذلك، اكتشفوا أهمية الطبقة العاملة».

في 2 مايو/ أيار 1968، انتقلت شعلة الثورة الطلابية من الضواحي إلى قلب العاصمة باريس مختربة أسوار جامعة السوربون العريقة، لكن النخبة السياسية وفي مقدمتها رئيس الوزراء - آنذاك - جورج بومبيدو الذي آثر أن يزور أفغانستان، لم يكونوا يدركون أن حراك الطلبة سيؤدي إلى ولادة لحظة سياسية جديدة انتهت باستقالة الرئيس الفرنسي شارل دوغول رغم شرعيته الانتخابية

والتاريخية بصفته رمزا للتحضر ضد النازية في الحرب العالمية الثانية. وإذا كانت «ثورة مايو» قد ألهمت حركات احتجاجية مدفوعة بالمد اليساري في أوروبا والعالم، فإنها أحييت ممارسة صحفية جديدة متأثرة بانخراط علماء اجتماع في نقد النظام الرمزي لـ «التقاليد المرعية» المتولد عن تطور الرأسمالية في وسائل الإعلام.

يومها، وجدت النخب الأكاديمية ومعها الصحفيون أنفسهم أمام واقع معقد لا يمكن تفسيره بالأدوات التقليدية (2) أو بالمقالات السريعة القائمة على الرأي النخبوي المتعالي عن تعقيدات المجتمع، لاسيما وأن الحراك الطلابي تطور بسرعة واتخذ منحى «ثوريا» لا يخلو من لحظات عنف شديدة لدرجة أن عالم اجتماع مرموقا مثل رايمون آرون كتب (3) في مقالة أصبحت مرجعية Après la tempête (بعد العاصفة): «لم يتوقع أحد قبل شهر قط ما حدث؛ لا رئيس الجمهورية ولا الحكومة ولا نواب البرلمان ولا الحزب الشيوعي ولا النقابات ولا كاتب هذه السطور نفسه».

في الفترة التي سبقت الثورة الطلابية، كانت الممارسة الصحفية السائدة في فرنسا مشغولة بمعركة الرأي في صفحات الصحف السياسية والثقافية، بينما كان الغضب ينمو في الهوامش وداخل الفضاءات الطلابية دون قدرة وسائل الإعلام على رصد مؤشرات غضب شعبي ضد «السلطة الأبوية» وذلك الشكل من السلطة الذي برز بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.

بمعنى آخر؛ إن سيادة الرأي و«طغيان الاتصال» كما وصفه مدير «لوموند ديبلوماتيك» السابق

إغناسيو رامونيه في كتابه أغفل حضور الميدان في الصحافة؛ ففي البحث الميداني يكون الصحفي ملتصقا أكثر بالواقع وأقدر على إنتاج معرفة تحترم شروط «الحقيقة الموضوعية». وفي مقابل القصص السريعة التي توصف بالمكتبية، فإن الصحفي في الميدان يجمع ويحلل ويفسر ويوضح ويشكك في الأحكام الجاهزة ويعيد تأويلها ضمن سياقاتها، ويلبس في الكثير من الأحيان عباءة عالم الاجتماع لشرح الظواهر المعقدة مثل الهجرة والحراكات الاحتجاجية والتدين في المجتمع وطبيعة العلاقات الاجتماعية وعلاقات القوة فيه.

إذا كانت «ثورة مايو 1968» بفرنسا قد ألهمت حركات احتجاجية مدفوعة بالمد اليساري في أوروبا والعالم، فإنها أحييت ممارسة صحفية جديدة متأثرة بانخراط علماء اجتماع في نقد النظام الرمزي لـ «التقاليد المرعية» المتولد عن تطور الرأسمالية في وسائل الإعلام.

الميدان والحقيقة الموضوعية

بعد ظهور الإنترنت، وخصوصاً مع الانتشار الواسع لمنصات التواصل الاجتماعي، تضخمت الأدبيات حول هذه التطورات التكنولوجية الطارئة على العمل الصحفي؛ من تراجع في المعايير المهنية وتجريد الممارسة الصحفية من قيمتها في العمق

والمساءلة، دون أن تنعكس المقاربات النقدية على عمل الصحفيين أو تطوير وسائل الإعلام لأساليب إنتاج المعرفة الصحفية.

يتضمن «صك الاتهام» الموجه إلى الصحافة في عصر الإنترنت سعيها نحو السرعة والتحول إلى «ساعة» رأسمالية قائمة على منطق السوق، والاتجاه نحو الترفيه والارتهان للأجندات الاقتصادية للشركات الكبرى وخضوع قادة غرف الأخبار للنخب السياسية. لكن الكاتب الفرنسي سيرج حليمي مؤلف كتاب «الحراس الجدد» يجادل بأن الإنترنت لم يكن هو من دمر الصحافة، بل إنها كانت «تتعثّر» منذ فترة تحت وطأة إعادة الهيكلة، والمحتوى المدفوع بالتسويق، وازدراء قراء الطبقة العاملة، وتحت تأثير المليارديرات والمعلنين. لم يكن الإنترنت هو من روج لأكاذيب الحلفاء خلال حرب الخليج الأولى (1991) أو

أكاذيب الناتو خلال صراع كوسوفو أو أكاذيب البنتاغون خلال حرب العراق. ولا يمكننا لوم الإنترنت على عجز وسائل الإعلام عن نشر انهيار بنوك الادخار في الولايات المتحدة عام 1989 وانهيار الدول الناشئة بعد ثماني سنوات» (4).

**هل للصحافة موقف في
النقد الاجتماعي والسياسي
والثقافي؟ هل ماهيتها
وصفية إخبارية معيارية لا
تحيد عن تقاليدھا في الإخبار
أم إن ما يعني الصحفي مثلما
يكتب عبد الله العروي في
«من ديوان السياسة» - هو
الجواب لا المرجعيات، الخلاصة
لا المقدمات. وبدون مقدمات
هل يفهم الجواب؟**

ضمن هذا النقاش حول سلطة الصحافة الذي تغذى بنتائج الحرب العالمية الثانية وتطور علوم الاتصال بشكل خاص في الولايات المتحدة الأمريكية، ظهرت تجارب رائدة في أمريكا وأوروبا وأمريكا اللاتينية تتجاوز الوظيفة التقليدية في الإخبار إلى تفسير الأحداث وفهم المجتمع وتحسين جودة التغطية الإعلامية ودقتها وتوفير السياقات الضرورية لتأطير الأحداث. مع ذلك، ظل التوجس سائداً في العلاقة بين الصحافة كمجال يسعى إلى بناء الحقائق بوضوح وتركيز واختزال بالاعتماد على السرد، والعلوم الاجتماعية والإنسانية كحقل يميل عادة إلى التجريد والتحليل النظري واحترام «المسافة السوسيولوجية».

وبالمعنى الذي ألمحنا إليه سابقاً، فإن مصدر «سوء الفهم» الأساسي يتأسس على الأسئلة التالية: هل

في البحث الميداني يكون الصحفي ملتصقا أكثر بالواقع وأقدر على إنتاج معرفة تحترم شروط «الحقيقة الموضوعية» (تصوير: كارلوس غارسيا راولينز - رويترز).

للصحافة موقف في النقد الاجتماعي والسياسي والثقافي؟ هل ماهيتها وصفية إخبارية معيارية لا تحيد عن تقاليدها في الإخبار أم إنَّ ما يعني الصحفي مثلما يكتب عبد الله العروي في «من ديوان السياسة» - هو الجواب لا المرجعيات، الخلاصة لا المقدمات. وبدون مقدمات هل يفهم الجواب؟ (5)

في سنة 2014، كنت بصدد إنجاز تحقيق في منطقة كلميمة جنوب المغرب حول موضوع تعذيب سكان المدينة سنة 1981 بسبب اتهام السلطة لهم بعصيان أوامر الملك الراحل الحسن الثاني بإلغاء شعيبة ذبح الأضحية والتمرد على السلطة المركزية بعدما «نُحتت» عبارات على أبواب المدينة تستهجن القرار.

بدا الأمر في الوهلة الأولى، وبعد جمع الشهادات، أن القضية - من الناحية الصحفية - واضحة وبسيطة: سكان يحتجون على القرار والسلطة «تؤدبهم». لكن مراجعة دقيقة لتاريخ علاقة المنطقة بالسلطة المركزية تنسف هذا الاختزال، وتقدم سياقاً تاريخياً جديداً يقلب زاوية المعالجة.

بدا الأمر في الوهلة الأولى، وبعد جمع الشهادات، أن القضية - من الناحية الصحفية - واضحة وبسيطة: سكان يحتجون على القرار والسلطة «تؤدبهم». لكن مراجعة دقيقة لتاريخ علاقة المنطقة بالسلطة المركزية تنسف هذا الاختزال، وتقدم سياقاً تاريخياً جديداً يقلب زاوية المعالجة.

تبعد مدينة كلميمة عن العاصمة الرباط - حيث كنت أشتغل - ثماني ساعات تقريبا، ولعله من المثالي إنجاز قصة دون الحاجة إلى النزول إلى الميدان وتحمل مشقة نصف يوم في الطريق وتكاليف إضافية على المؤسسة، والحال أنني كنت قد حصلت على الشهادات والمصادر وبعض تصريحات سكان المدينة ممن عايشوا الأحداث إضافة إلى تقارير هيئة الإنصاف والمصالحة التي عالجت موضوع الذاكرة الجماعية.

لقد ساعدت ملاحظة بسيطة أدلى بها أحد ضحايا التعذيب سنة 1981، تتعلق بمقاطعة سابقة لاستفتاء تمديد الولاية البرلمانية لتصبح 6 سنوات بدل 4 - اقترحته الدولة وعبأت كل الوسائل لإقراره - على تغيير زاوية المعالجة من «كشف معاناة الضحايا» إلى التنقيب عن الجذور التاريخية التي تسعف في فهم دوافع تعذيب السلطة لمواطنين بطرق قاسية جدا.

هل يمكن للصحافة بطبيعتها الاختزالية والسريعة والمحكومة بهاجس اقتصادي أن تتحمل هذا النمط الجديد من المقاربة التاريخية التي لا تتسامح مع أنصاف الحقائق، وهو نمط مرتبط بالتركيز على معاناة الضحايا لا المتسببين بها؟

بالنسبة لي كان إبراز هذه الخلفية التاريخية المتمثلة في سيطرة مزاج مضاد للسلطة في المدينة ضرورياً لأربعة أسباب رئيسية:

- إن التحولات المعاصرة في عالم الصحافة تعطي مكانة متزايدة للعلوم الاجتماعية والإنسانية لتأطير القصص في سياقاتها غير المجتزأة وتبني معرفة جديدة

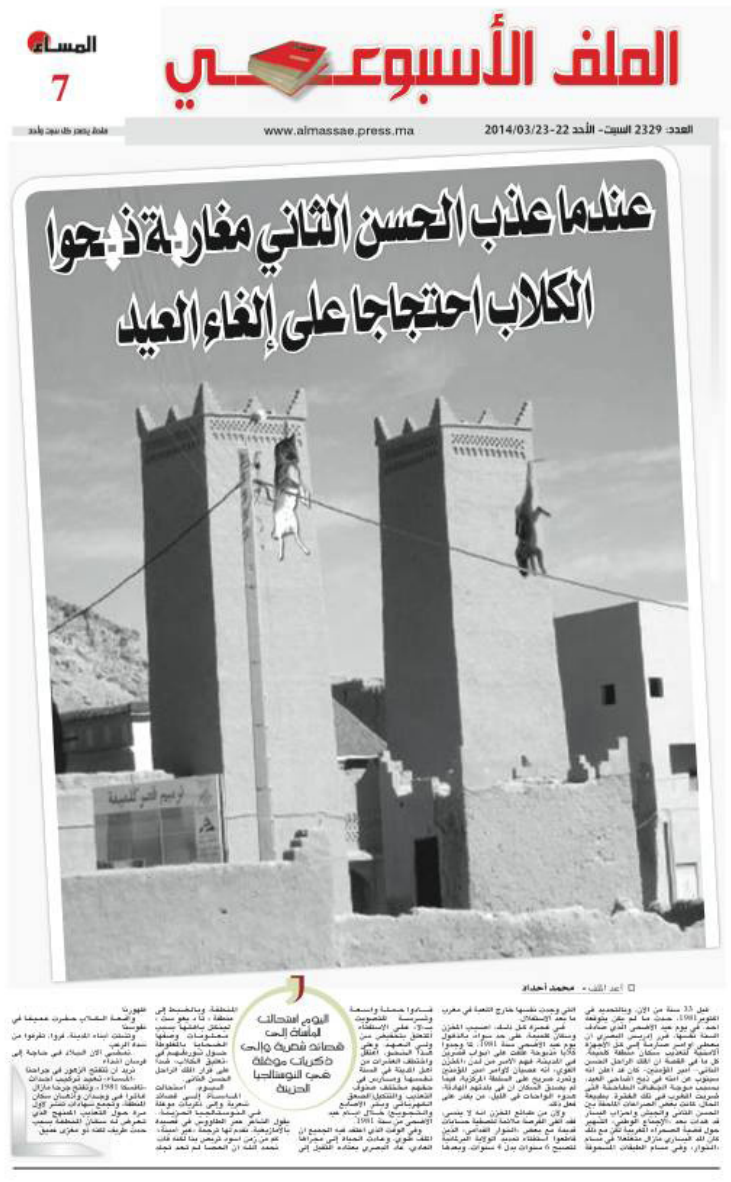
تتجاوز ما هو معروف وعام حول الموضوع.

- الهدف الرئيس هو تجاوز النظرة التقليدية التي تنظر إلى العلوم الاجتماعية باعتبارها معرفة أكاديمية معقدة ومجردة ونخبوية، وفي مقابل هذه الرؤية من المهم أن نبين للجمهور إلى أي مدى يمكن أن تفي هذه المعارف في تجويد القصص الاستقصائية على وجه التحديد.

- يكتسب الميدان في الصحافة قيمة جوهرية تنتمي إلى صميم المهنة وتقاطعها مع العلوم الاجتماعية والإنسانية في البحث عن الحقيقة الموضوعية؛ لأنه يساعد على معالجة الأحكام المسبقة وربما العثور على حقائق بديلة وجديدة قد تتناقض كلياً مع تحيزات الصحفي، أو تؤسس لمعرفة جديدة.

- العلاقة بين الصحافة والعلوم الاجتماعية أو الإنسانية لا يجب أن تُوَطر في ثنائية الانفصال أو الاتصال أو بصفتها مجالين (وليس حقلين لأن الصحافة تصنف ضمن العلوم الاجتماعية)، إنما النظر إلى الصحافة كمهنة متطورة تقاوم الرؤية الرأسمالية للمعلومات وتسليع الأخبار والقيم المعرفية التي تنتجها، وهي بحاجة إلى أدوات العلوم الاجتماعية لتفسير ظواهر سماتها التعقيد والتشابك.

وهكذا كنت حريصاً على الإشارة بوضوح في مقدمة التحقيق إلى هذه الخلفية التاريخية ولو بشكل مقتضب: «ولأن من طبائع المخزن أنه لا ينسى، فقد ألقى الفرصة ملائمة لتصفية حسابات قديمة مع بعض «الثوار القدامى» الذين قاطعوا استفتاء تمديد الولاية البرلمانية لتصبح 6 سنوات بدل



4 سنوات، وبعدها قادوا حملة واسعة وشرسة للتصويت بـ«لا» على الاستفتاء المتعلق بتخفيض سن رشد ولي العهد. وعلى هذا النحو، اعتقل واختطف العشرات من أهل المدينة في السنة نفسها ومورست في حقهم مختلف صنوف التعذيب والتنكيل (الصعق الكهربائي وبتر الأصابع والتجويع) خلال أيام عيد الأضحى من سنة 1981» (6).

مثل هذا التأطير التاريخي للأحداث لا يساعد فقط في تنوير الجمهور بحقيقة ما جرى وربط شهادات الضحايا بالأحداث التاريخية، بل يحاكم الجناة ويشرح الطبيعة الانتقامية للسلطة في تلك الأيام الصعبة من العلاقة المتوترة بين الدولة والمجتمع.

لا يمكن اعتبار مجرد لجوء الصحفيين إلى الاقتباس من العلوم الاجتماعية أو الإنسانية شرطا لتحقيق الدقة والجودة، بل إنها قد تفضي إلى التزييل ومساندة سرديات منحازة والدفاع عن روايات قادمة من السلطة. وقد أظهرت تغطية حرب الإبادة الجماعية في فلسطين كيف يسهم التلاعب بالمعلومات التاريخية في تكريس رواية الاحتلال وإحقاق «الوعد اليهودي» وأن فلسطين كانت أرضا خالية..

غلاف التحقيق الذي أنجزه كاتب المقال (جريدة المساء المغربية).

الأيديولوجي وانحيازات الصحفي أو لضغوط المجتمع أو قمع السلطة كما هو الحال في العالم العربي. لذلك لا

وتحسين زوايا المعالجة إذا كانت المقاربات الاجتماعية أو الإنسانية سطحية أو مبتورة أو خاضعة للتأويل

قد لا يؤدي العمل الصحفي الميداني الملجح بالعلوم الاجتماعية دائما إلى بناء الحقائق الموضوعية

A black and white photograph of a wooden desk. On the desk, there is a vintage camera with a strap, a cup of coffee with a lid, a ruler, and several sheets of paper. A hand is visible, holding the ruler. The background is dark and out of focus.

الصحافة ومناهج البحث الاجتماعية

أحمد نظيف

على عكس ما يشاع من تنافر نظري بين الصحافة والعلوم الاجتماعية، فإنهما يتداخلان على نحو معقد ومفيد لكليهما، خاصة بالنسبة للصحافة التي لا ينبغي أن تتعلق فقط بتغطية الحقائق، بل أن تنشغل أيضا بالتحقيق بشكل منهجي في الظواهر المجتمعية لإعلام الجمهور وتثقيفه. يجيب المقال عن سؤال محوري: كيف يمكن أن نجسّر الهوة بين الصحافة والعلوم الاجتماعية؟

بين الصحافة والعلوم الانسانية والاجتماعية حواجز نظرية، عمقها التنافر بين الصحفيين والباحثين، سواء من جهة فقدان جسور الثقة أو من جهة تعالي العلوم الاجتماعية وممثليها على الصحافة بوصفهما تقابلاً بين المعرفة الرصينة والمعرفة السريعة. لكن في الحقيقة إن الهوة أقل عمقاً مما نعتقد، لاسيما بالنسبة للصحفيين الذين يشتغلون خارج غرفة الأخبار على مضامين تحتاج وقتاً وتريثاً في الصياغة والبحث. وكوني أنتمي للعالمين، عالم الصحافة وعالم العلوم الاجتماعية، فإن الجمع بينهما مفيد لكليهما في تجويد العمل والاستفادة من قبعتي الصحفي والباحث أحياناً لتجريد الوقائع من هيمنة الواقع، وأحياناً أخرى لمنح المقولات النظرية لبوس الواقع والنزول بها إلى الأرض؛ ففي حين يركز الباحثون الأكاديميون في كثير من الأحيان على بناء النظريات والدراسات طويلة الأجل، فإن الصحفيين يطبقون هذه الأساليب في الزمن الراهن لإنتاج رؤى قابلة للتنفيذ.

لا يعني ذلك غياب الحواجز تماماً بين العالمين، ولكن بالممارسة يكتشف الصحفي أنه يمارس عمل الباحث الاجتماعي أو التاريخي بشكل واع أو غير واع، ولكنه نسبي وغير مكتمل تماماً، كونه يريد تقديم خدمة للجمهور، خلافاً للباحث الذي يعمل على تحقيق الهدف المعرفي في ذاته - بغض النظر عن الجمهور أو المتلقي - ولذلك يعتبر البعض أن الصحافة تنتمي لفئة العلوم الاجتماعية التطبيقية، وهو الزعم الذي دافع عنه إريك دبليو ألين (1) منذ عشرينات القرن الماضي، وقام بتجسير الفجوة بين الصحافة مهنة والصحافة علماً. وقد أرسى عمله الأساس لفهم كيفية تقاطع

الممارسات الصحفية مع منهجيات ومبادئ العلوم الاجتماعية مثل علم الاجتماع وعلم النفس والعلوم السياسية والأنثروبولوجيا، مؤكداً أن الصحافة لا تتعلق فقط بتغطية الحقائق، بل تنشغل أيضاً بالتحقيق بشكل منهجي في الظواهر المجتمعية لإعلام الجمهور وثقافته وإشراكه.

”
كوني أنتمي للعالمين،
عالم الصحافة وعالم العلوم
الاجتماعية، فإن الجمع
بينهما مفيد لكليهما في
تجويد العمل والاستفادة من
قبعتي الصحفي والباحث
أحياناً لتجريد الوقائع من
هيمنة الواقع، وأحياناً أخرى
لمنح المقولات النظرية
لبوس الواقع والنزول بها
إلى الأرض.“

تقاطع المناهج في الصحافة

ربما يكون المنتج الصحفي أكثر أصناف المعرفة التي تتقاطع فيها مناهج العلوم الاجتماعية، سواء في المنتج النهائي الذي يظهر للجمهور أو في كواليس الإنتاج، ويتجاوز هذا التقاطع حواجز تقسيم الأجناس الصحفية المختلفة، بدايةً من الأقل تعقيداً كالخبر، إلى الأكثر تعقيداً كالتحقيقات الاستقصائية والوثائقيات، واللافت أن توظيف الصحافة لمنظورات وأساليب العلوم الاجتماعية ليس ظاهرة

حديثة، بل بدأ يتطور منذ ظهور الصحافة كمهنة مستقلة (2)، لكن ربما الوعي بها أو اهتمام أدبيات الصحافة البحثية بهذا التوظيف لم يبدأ إلا بشكل متأخر نسبياً. واليوم، ومع تطور وسائل غير صحفية في شغل موقع الصحافة في نقل الأخبار؛ كالمنصات الاجتماعية، أصبح المنتج الصحفي المعزز بمناهج العلوم الاجتماعية الامتياز الذي يحقق فريدة الصحافة في مواجهة منافسيها غير التقليديين؛ حيث توفر أساليب البحث الاجتماعي للصحفيين الأدوات اللازمة لفهم القضايا المجتمعية والاتجاهات وأحياناً السلوك البشري، مما يمكنهم من إنتاج قصص متكاملة مبنية على الأدلة.

تعتمد الصحافة بشكل واضح ومباشر على أساسيات منهج البحث في العلوم الاجتماعية، من خلال آليات مثل الملاحظة والتحليل وتفسير الظواهر. كما تستخدم أدوات العلوم الاجتماعية بشكل متقاطع أو نسبي في إنتاج مضامينها وذلك من خلال البعد الكمي؛ لتحديد الأنماط والاتجاهات والارتباطات، والذي يشمل جمع البيانات واستطلاعات الرأي والتعامل مع البيانات عبر التحليل والمقارنة والمؤشرات والإحصاءات، لاسيما في الصحافة الاقتصادية وصحافة الحوادث، وصحافة البيانات، التي أصبحت جنساً مستقلاً يعتبر جسراً أساسياً بين الصحافة والعلوم الاجتماعية وعلم الإحصاء أو من خلال البعد النوعي المضموني، الذي يقدم معرفة أعمق للظواهر. ويشمل ذلك أدوات مثل المقابلات، كمصادر من درجة أولى لبناء القصة، وهي أداة مستخدمة على نحو واسع في العلوم الاجتماعية، وكذلك «الصحفي المشارك»، على قياس الباحث المشارك، الذي ينخرط في تجربة واقعية ضمن الظاهرة التي

وربما دفع اتساع هذا الحيز الصحفي وعالمية الأنثروبولوجيا آن كريستين هيرمان إلى نحت مصطلح «الصحافة الإثنوغرافية» (3) أو «الصحافة الأنثروبولوجية» كما يسميها البعض والتي تشير إلى أنه في وقت يفرض فيه التعدد الثقافي تحديات واضحة على الصحافة ووسائل الإعلام، وتتطلب الاتجاهات المزيد من التقارير السياقية، تظهر الصحافة الإثنوغرافية جنساً مستقلاً يوظف إستراتيجيات الانغماس المستمدة من العلوم الاجتماعية لأغراض سرد القصص. وتقتصر الباحثة أن تتطور الصحافة الإثنوغرافية كشكل من أشكال الوساطة بين المجالين: الصحفي والعلمي؛ للمساعدة في معالجة نقاط الضعف في كليهما

الخطوط بين الصحفي والباحث الأنثروبولوجي تختفي أحياناً. تشغل الإثنوغرافيا حيزاً هاماً اليوم في الأجناس الصحفية الرصينة.

اليوم، ومع تطور وسائل غير
صحفية في شغل موقع
الصحافة في نقل الأخبار؛
كالمنصات الاجتماعية، أصبح
المنتج الصحفي المعزز
بمناهج العلوم الاجتماعية
الامتياز الذي يحقق فائدة
الصحافة في مواجهة
منافسيها غير التقليديين.

يبحث فيها وحولها، مثل الصحفيين الذين يخترقون مجموعات مغلقة أو الذين يقومون برحلات طويلة لمعيشة بيئات أو أماكن لإجراء تحقيقات استقصائية. وتمثل هذه الأداة البحثية التي يتماهى فيها أحياناً الذاتي مع الموضوعي، وسيلة لفهم أعمق للتفاعلات الاجتماعية والظواهر، تمكن الصحفي من تقديم مضمون ذي جودة عالية.

وضمن هذا البعد النوعي، نجد أيضاً تقاطعاً كبيراً بين العلوم الاجتماعية والصحافة في توظيف «الإثنوغرافيا»، المنهج النوعي المستخدم في الأنثروبولوجيا لدراسة مجموعات اجتماعية وثقافية بعمق. ويستخدم هذا المنهج بشكل واسع اليوم في الصحافة الاستقصائية، حتى تكاد



في العالم العربي. يضاف تحد آخر يمكن أن يشكل عائقاً أمام تطور الأجناس الصحفية التي تعتمد مناهج العلوم الاجتماعية لتعميق منظور الصحافة تجاه الظواهر والأحداث، وهو حرية الوصول للمعلومات والبيانات والوثائق، وحرية التنقل والاجتماع (شترستوك).

سواء كان ذلك فيما يتعلق بصرامة التجريد الذي يخشى الصحفيون التعامل معه أو الانفصال بين مصطلحات علماء الإثنوغرافيا والفهم العام للقضايا ذاتها التي يسعى الباحثون إلى توضيحها.

تشكل الإثنوغرافيا - اليوم وأكثر من أي وقت مضى - فرصة منهجية للصحافة للمحافظة على موقعها الاجتماعي والمعرفي في ظل المنافسة من المنصات الاجتماعية، بكل ما تجره من أخطار على المهنة وأخلاقياتها؛ حيث تقدم الإثنوغرافيا - بصفتها ممارسة بحثية تقوم على اندماج الباحث أو الصحفي لفترات طويلة في موضوعه ومعايشته من الداخل لاكتساب معرفة وثيقة بديناميكيته - السبيل المنهجي للصحافة للعودة

نجد تقاطعاً كبيراً بين العلوم الاجتماعية والصحافة في توظيف «الإثنوغرافيا»، المنهج النوعي المستخدم في الأنثروبولوجيا لدراسة مجموعات اجتماعية وثقافية بعمق. ويستخدم هذا المنهج بشكل واسع اليوم في الصحافة الاستقصائية، حتى تكاد الخطوط بين الصحفي والباحث الأنثروبولوجي تختفي أحياناً.

إلى أساسها الرصين، وتقيم جسراً بين الجمهور والعالم في رآهه. وتكشف الأمثلة الريادية لهذا النوع من الصحافة عن قوتها في الوصول إلى الجمهور، وجودة مضمونها ذي المصادر الأصلية كما في العمل الطليعي الذي قامت به الصحفية باربرا إيرينرايش، التي اشتغلت عاملة ذات أجر منخفض بين 1998 و2000، لتوثيق معاناة البقاء على قيد الحياة بأجر أدنى في صفوف الفئات الهشة اجتماعياً. وقد سلطت - من خلال تحقيق طويل نُشر في مجلة هاربر - الضوء على قضايا حساسة مثل الفقر، والرعاية الصحية غير الكافية، وممارسات العمل الاستغلالية. وقد نُشر العمل لاحقاً في كتاب مستقل عام 2001 تحت عنوان «نيكل ودايمد: عن العجز في أمريكا» (4).

تقدم الإثنوغرافيا - بصفتها ممارسة بحثية تقوم على اندماج الباحث أو الصحفي لفترات طويلة في موضوعه ومعايشته من الداخل لاكتساب معرفة وثيقة بديناميكيته - السبيل المنهجي للصحافة للعودة إلى أساسها الرصين (تصوير: ياب أرينز - غيتي).

وكذلك عمل الصحفية الاستقصائية الأمريكية كاثرين بو «خلف الجمال الأبدي: الحياة والموت والأمل في مدينة مومباي» (5)، الذي فاز بالجائزة الوطنية للكتاب غير الروائي في الولايات المتحدة عام 2012 ووصل إلى نهائيات جائزة بوليتزر للكتاب عام 2013 وهو ثمرة معايشة يومية لكاثرين بو مع سكان أناوادي - أحد الأحياء الفقيرة في مومباي الهندية لسنوات - رسمت من خلالها صورة قاتمة عن الفقر؛ إذ يكافح السكان لتلبية احتياجاتهم الأساسية وسط تفاوت متزايد في الثروة وكذلك حول مفارقة العولمة، التي غالباً ما تتجاوز فوائدها المجتمعات المهمشة. فبينما تقع أناوادي على مقربة من رموز التقدم الاقتصادي، كالفنادق الفاخرة والمطار، ما يزال سكانها مستبعدين من هذه التطورات فضلاً عن التحليل الإثنوغرافي الرائع لأدوار النساء وتوقعاتهن في أناوادي المتوترة بين الأدوار الجندرية التقليدية والتطلعات الحديثة.

الفوائد والمحاذير

من شأن توسيع أدوات العمل الصحفي لتشمل المناهج العلوم الاجتماعية، أن يعزز مصداقية المضمون الصحفي لدى الجمهور، وينتج قصصاً أكثر توازناً؛ لأن هذه المناهج تنجح في مقارنة تعقيدات الظواهر والتجارب، ووضعها في سياقاتها التاريخية والثقافية، وتكشف خاصة ما وراء الأخبار، مثل التحيزات السياسية والطائفية، والتأثيرات غير المرئية على الإنسان والبيئة وغيرها من الخلفيات التي تحتاج بحثاً أعمق. أما الفائدة الأكبر فهي جعل الظواهر الأكثر تعقيداً في الاقتصاد والسياسية والمجتمع سهلة وفي متناول الجمهور لفهمها وتكوين رأي بشأنها؛ حيث يفتح استخدام البيانات وتحليلها إمكانيات جديدة لسرد القصص من خلال الرسوم البيانية التفاعلية والخرائط الرقمية والعروض التقديمية المتعددة الوسائط.

في المقابل ثمة العديد من التحديات والمحاذير المنهجية التي تجعل من تطوير نهج صحفي قائم على العلوم الاجتماعية أو دمجها لاستخراج شكل جديد من المعرفة مساراً تعترضه الكثير من الصعوبات. أولها: نموذج العمل المختلف تماماً بين المجالين؛ فمن جهة تقوم الصحافة على تخصيص قدر من الموارد الفنية والمالية والزمنية المحددة جداً لإنتاج مضمون ينتظره الجمهور بينما يحتاج إنتاج مضمون وفقاً لمنهج العلوم الاجتماعية - من حيث الجودة والصرامة - إلى وقت أطول وموارد أكبر، مما يجعل مسألة التوافق بين المنهج والانتظارات غير متطابقة، إلا في حالات تتعلق بالتحقيقات الاستقصائية طويلة الأمد فضلاً عن حذر المؤسسات الصحفية والإعلامية - التي هي مؤسسات تراعي نموذجاً ربحياً أو اقتصادياً يسعى للاستدامة

- من تخصيص موارد كبيرة لإنتاج مضامين ذات عمق يراعي مناهج البحث الاجتماعي.

كما يفرض نقص الموارد البشرية في هذا المجال نفسه كتحدي أساسي؛ حيث لا يتمتع إلا عدد قليل من الصحفيين بالتدريب والتكوين المعرفي الضروري لإنتاج مضامين وفية لمنهج البحث الاجتماعي، إما بسبب غياب هذا النوع من التكوين في كليات ومعاهد الصحافة أو بسبب إجحام المؤسسات الإعلامية عن استثمار موارد إضافية لتدريب كوادرها الصحفية على هذا النوع من العمل.

وفي العالم العربي، يضاف تحد آخر يمكن أن يشكل عائقاً أمام تطور الأجناس الصحفية التي تعتمد مناهج العلوم الاجتماعية لتعميق منظور الصحافة تجاه الظواهر والأحداث، وهو حرية الوصول للمعلومات والبيانات والوثائق، وحرية التنقل والاجتماع؛ ذلك أنه - في كثير من الحالات - قد تكون البيانات ذات الصلة غير متاحة، أو غير كاملة، أو يصعب الوصول إليها بسبب القيود القانونية، أو بسبب الافتقار إلى الشفافية، أو تعميم السلطات المتعمد عليها. إن البحث الصحفي يحتاج قدراً من حرية الصحفي وحرية وصوله إلى المعلومة، وبدونهما لا يمكن إنتاج مضمون عميق يراعي صرامة منهج العلوم الاجتماعية وموثوقيته وعمقه. ولعل مسألة الحرية، هي التي تشكل أكثر العقبات صلابة أمام تطور العلوم الاجتماعية نفسها في العالم العربي، بسبب سيطرة السلطة على الوثائق والمعلومات وبسبب تقييد حرية الباحث في اختيار موضوعات بحثه وكذلك في إدارة عملية البحث ومخاطبة المصادر الأصلية بشكل مباشر وبلا قيود.

من شأن توسيع أدوات العمل الصحفي لتشمل المناهج العلوم الاجتماعية، أن يعزز مصداقية المضمون الصحفي لدى الجمهور، وينتج قصصاً أكثر توازناً؛ لأن هذه المناهج تنجح في مقارنة تعقيدات الظواهر والتجارب، ووضعها في سياقاتها التاريخية والثقافية، وتكشف خاصة ما وراء الأخبار، مثل التحيزات السياسية والطائفية، والتأثيرات غير المرئية على الإنسان والبيئة وغيرها.



المراجع

- (1) في عام 1912، عُيّن إريك دبليو ألين، الذي كان محرراً في صحيفة سياتل بوست إنتلجنسر، لإنشاء قسم الصحافة في جامعة أوريغون، وقد ظل عميداً للكلية حتى وفاته عام 1944. ونشر ألين في مارس 1927، ورقة بعنوان «الصحافة كعلم اجتماعي تطبيقي»
Journalism & Mass Communication Quarterly, 4, no. 1.
- (2) Weaver, David H., and Maxwell E. McCombs. "Journalism and Social Science: A New Relationship?" The Public Opinion Quarterly, 44, no. 4 (1980 Winter): 477-494.
- (3) Hermann, Anne Kirstine. "Ethnographic Journalism." Journalism, 17, no. 2 (December 2014): 220-235. <https://doi.org/10.1464/884914555964/10,1177/https://doi.org.235>
- (4) Ehrenreich, Barbara. Nickel and Dimed: On (Not) Getting by in America. New York: Henry Holt and Company, 2001.
- (5) Boo, Katherine. Behind the Beautiful Forevers: Life, Death, and Hope in a Mumbai Undercity. New York: Random House, 2011.

A photograph of a student's desk in a classroom. On the desk, there is a floral pencil case with the words 'make magic' written on it, a small white eraser, and a camouflage-patterned bag. A student's arm is visible on the left side of the frame.

تدريس الصحافة والعلوم الاجتماعية.. خصوصية راسخة؟

سعيد أبو معلا

في شمال الضفة الغربية، عاش طلبة الصحافة تجربة مختلفة مع «بدو الأغوار» لمدة ثلاثة أيام، جربوا فيها الاشتباك بالميدان في سياق ممارسة «الصحافة بالمجاورة» تحت إشراف الدكتور منير فاشة. خارج قاعات الدرس اختبر الطلبة أدوات قادمة من العلوم الاجتماعية رغم أن دراسات موثقة تبرز الخصومة الراسخة بين تدريس الصحافة في تقاطعها مع العلوم الاجتماعية والإنسانية.

في عام 2014 نظم مركز تطوير الإعلام في فلسطين "دورة تفاعلية مع بدو الأغوار" في وادي المالح شرق محافظة طوباس شمال الضفة الغربية. تضمنت الدورة إقامة المشاركين والمشاركات في المنطقة لمدة 3 أيام، تحت إشراف المفكر الفلسطيني الدكتور منير فاشة، مؤسس مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، و"الملقى التربوي العربي" في مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفارد.

شارك في الدورة - أو من باب الدقة أكثر - في البرنامج التعليمي القائم على المجاورة طلبة إعلام من أكثر من جامعة فلسطينية مركزيين على مفهوم "الإعلام بالمجاورة" الذي اقترحه فاشة بديلاً من بدائل الإعلام والاتصال في ظل التطورات التكنولوجية والرقمية الحاصلة في حقل الصحافة.

أثناء التدريب، قال الخبير التربوي إن برنامج التعليم يرمي إلى تعليم وتعلم ممارسة الصحافة بالمجاورة، ضمن مفهوم جديد يستعيد جزءاً كبيراً من ثقافتنا الطبيعية والتاريخية؛ حيث العيش والتعلم والتحدث والتعامل والعمل بشكل حر وصادق خارج أي إطار مصطنع أو شرط اجتماعي.

كانت رؤيته تقوم على أن الهدف من البرنامج هو "تحقيق العافية الاجتماعية وحماية الحياة، ودون استعمال كلمات صُنعت في أوروبا يتعلق أغلبها بالتقدم عبر أدوات ومفاهيم ترتبط بالسيطرة والفوز والتخريب". (1)

تعيد تجربة فاشة الاعتبار للمجتمع بدلاً من التركيز على "الجمهور"، حيث صرح وقتها: "وفق برنامج الاتصال بالمجاورة يتحول الأهالي إلى مواطنين، وتستعاد كلمات ومعاني

منبعها الحياة والحضارة، على أمل الاستمرار في استخدام هذه الكلمات في حياتنا اليومية؛ حيث يكون التحدث عن الأهالي "باعتبارهم الأمل والوسيط" من خلال لغتهم هم، وليس بشكل عام ومجرد، وهي أدوار قد يقوم بها الصحفيون بشكل أصيل".

لقد أنتج الطلبة المشاركون في درس "التعليم بالمجاورة" مواد صحفية تحقق مفهوم "الإعلام بالمجاورة" بعد أن جمعوا مقابلات من أهالي الأغوار الشمالية الفلسطينية عن احتياجاتهم وهمومهم، حتما كانت المخرجات مختلفة عن تلك التي تنجز من المكاتب وعلى إيقاع النشر الحديث، غير أن الأهم في هذه التجربة أنها ستجعل الطلبة المشاركين على علم ودراية أكبر بواقع مجتمع الأغوار الفلسطيني بالاحتكاك المباشر في الميدان.

للمدقق يبدو أن هذا الدرس الحيوي والتفاعلي من نوع مختلف تماماً؛ أي أنه درس قادم من عالم لا يمت بصلة لطريقة تدريس الجامعات بصفاتها "مؤسسات" تسيجها جدران مانعة إلا نادراً، وهو ما جعل من هذه التجربة حدثاً لم يتكرر.

من الواضح أن هذا النموذج الملهم - الذي يقوم على التأمل والتجربة واللقاءات والحوار - يشكل نقىض تجارب تدريس الصحافة في العالم العربي التي يقتصر جلها على قاعات ومختبرات الدرس، علماً أن الجامعات التي تطورت كما ونوعاً متجاهلة الالتحام والتواصل الفعال مع المجتمع، تتجاهل أيضاً العلوم الاجتماعية بصفاتها تخصصات لصيقة بحقل الإعلام، وبدل أن يقوم فعل تعويضي أو مواز لعملية التدريس عبر عملية دمج أو توظيف العلوم الاجتماعية لخدمة تدريس الصحافة،

يحدث العكس تماماً.

هكذا يحرم الحقل الصحفي من عملية مهنية ومخططة لتوفير إطار معرفي بالمجتمع الذي يتشابك ويصبح أكثر تعقيداً، ويخضع للتغيير والتحويلات الاجتماعية والسياسية، والاقتصادية والدينية والثقافية... إلخ.

ظل البرنامج التعليمي فكرة ملهمة لكيفية تحقيق تواصل فعال وحقيقي بين طلبة الصحافة والإعلام والمجتمع الذي يفترض أنهم التحقوا بجامعاتهم ليصبحوا "وكلاء" معبرين عنه، فالصحافة - في جوهرها - جزء من عملية اجتماعية، لكن عدم تكرار هذه التجربة يعود لأسباب كثيرة أبرزها وجود خلل بنيوي في فكرة الجامعة بصفاتها مؤسسة تعليمية أو مؤسسة تقليدية لإنتاج المعرفة.

أثناء التدريب، قال الخبير التربوي إن برنامج التعليم يرمي إلى تعليم وتعلم ممارسة الصحافة بالمجاورة، ضمن مفهوم جديد يستعيد جزءاً كبيراً من ثقافتنا الطبيعية والتاريخية؛ حيث العيش والتعلم والتحدث والتعامل والعمل بشكل حر وصادق خارج أي إطار مصطنع أو شرط اجتماعي.

الصحافة وعياً بالمجتمع

أثناء تدريسي مساقات الصحافة المختلفة وتحديدًا لطلبة السنة الأولى أشدد دائماً على مبدأ أن

طفلة الأغوار دنيا: أحلم بأن أعيش كالفتيات اللواتي أقرأ عنهن في الروايات

زينة حمارشة *



حلم دنيا الكبير أن تدرس دون أن تشترطها آلة

سلطة الطاقة الآن تسعى بكل جهودها « أجل توفير وحدات الطاقة الشمسية لها التجهيزات. تنتظر دنيا وأملها أن تستخدم لها مؤسس أو بومدة طاقة شمسية قد توصل النور إلى حلمها الذي ما زال في العتمة وبينمحا نال. تخرجها من العتمة إلى النور.

* طلبة في دائرة التعليم بجامعة بيرزيت

هو اللجوء إلى الطاقة الشمسية التي تقوم على مبدأ التخزين في النهار حتى يتم استغلالها في إضاءة أجهزة بسيطة كتلاقيح وضوء هواتف وتلفاز. وقال ياسين إن الطاقة الشمسية تحتاج ميزانية معينة، وإنه سيتم التوجه إلى الحكومات الخارجية كمتبرعات لمشاريع في مناطق الأغوار وكافة التجمعات البدوية المبعثرة التي لا تصلها الكهرباء، مؤكداً أن

الحل هو الطاقة الشمسية

تمتاز منطقة المالح والمشارب بأنها منطقة صحراوية درجة الحرارة فيها مرتفعة جداً وفي القرن الماضي والعشرين مارالت البنية التحتية للسكان فيها رديئة جداً. ويتنصها كثير من مقومات الحياة من مياه وطاقة شمسية ونحو 450 عائلة تعيش بلا إنارة. مستخدمة قناديل الكاز لتضاء حوائجهم بعد غياب ضوء الشمس. وفي محاولات سعي عادة لتوفير مصدر إنارة للعوائل، أكد درالمة أنه تم التوجه إلى المؤسسات الحكومية والأهلية والإنسانية بأكثر من 40 رسالة من أجل توفير وحدات من الطاقة الشمسية. لكنه لم يتلق أية ردود حتى الآن على الرسائل المرسلة. ويقول درالمة إنه استطاع من خلال التعاون مع مؤسسة الجانية وجامعة النجاح الوطنية توفير 30 وحدة شمسية وضعت في منطقة المشجون والمدينة وبرزلا. ولكن هذا العدد لا يسد حاجة 400 عائلة من الإنارة. أما رد سلطة الطاقة، فقد أكد المهندس ياسين ياسين أنه تلقى العديد من الرسائل من رئيس مجلس الأغوار الشمالية والمالح. ولكن سلطة الطاقة والسلطة الفلسطينية بشكل عام لا توجد لديها سيطرة كاملة على هذه المناطق التي تصنف كمناطق (أ)، لذلك فإن لها الانصب الأقل حظاً من المشاريع. وخصوصاً مشاريع البناء والكهرباء، فالمل في هذا الوضع إنارة إلا قناديل الكاز.

الأربع معسكرات تدريجية ومستوطنات. أيها من عائلة مناضلة، فلكلة من إخوتها شهداء، والثنان لسيارة عند الانتقال. ورغم ذلك تنكف بكل جيوتها على قديمها لتناضل من أجل أبنائها وعيشهم. أما والدها، فيعمل في تربية الميوانات ويعاني من وضع مالي صعب. والد رابح حدة أزمته المالية هذا العام سونا بسبب حالة المنكف وللة الأمطار. يقول والد دنيا، لو كنا نعيش في منطقة خارج المالح، فلن يكفينا ما نجنيه من التربة الميوانية شيء. وحكم طبيعة المنطقة هناك وتباعد القرى بعضها عن بعض، تجد دنيا صعوبة في الوصول إلى مدرستها الواقعة في تياسير، والتي تبعد عن خيمتهم حوالي عشرة كيلومترات. أما ما هو أشد مرارة فهو محدودية وقت دنيا لمراجعة دروسها. فهي تضطر جاهدة لاستغلال ضوء شمس النهار حتى تنهي واجباتها وتحضرها اليومي. وما إن تغيب الشمس، حتى تخلد للنوم تاركة ما تبقى لخواه فجر جديد، مثلها مثل باقي أبناء المنطقة، فتمتلك المنطقة ما زالت في منطقة المالح أكثر من 450 عائلة تستخدم قناديل الكاز. يقول رئيس مجلس قروي الأغوار الشمالية عارف درالمة، هذا العام، سيتم استخدام لامتحان الثانوية العامة ستة طلاب من المنطقة. دون أن يتوفر لهم أي مصدر إنارة إلا قناديل الكاز.

شقت من طريق التوجه أبداً واتخذت من قنديل الكاز نوراً بعد أن علقت جدول امتحانات الثانوية العامة على قماش خيمتها أبداً أن تنهي هذه المرحلة وتتلقى إحدى الجامعات لإكمال مسيرتها التعليمية والتحق بتخصص اللغات والترجمة.

دنيا القاصي فتاة من عين الملوحة بمنطقة المالح والأغوار الشمالية، تكاد مرارة العيش. وتشهد أحداث البرأس رغم عمرها الذي لم يتجاوز ثمانية عشر ربيعاً. في حديث لجريدة «الحال» معها، قالت: أنا طفلة أحلم بأن أعيش كالفتيات اللواتي أقرأ عنهن في الروايات. أحلم بأن أعيش في بيئة تطيق ما تطيقها إياه المناهج المدرسية وتعطي أطفالي وأبنائها حقوقهم في الكتب والتعليم والمياة كباقي أطفال العالم. أحلم بأن أعيش في بيت بجزران، وأستفد وبيوت صبية وأبنة بعيدة عن أصوات المخربين والمحتلين وأنشد الميسرين اليوم إنارة خيمتي بالكهرباء، فلا أزيد شم راحة الكاز. وأريد أن أستعد جيداً لتقديم امتحانات الثانوية العامة. نشأت دنيا القاصي في عائلة ممتدة مكونة من تسعة أفراد. تعيش في ثلاث خيام ملاصقة بعضها لبعض. أرضيتها تراب وستفها من الزينكو، تمدها من الجفات

نساء الأغوار يُنجبن على الطرقات وفي الشاحنات

جنان أسامة السلواي *

طبيب فحيت جيني على الطريق وعندما وصلت القيمة عات الجنين وكل ذلك بسبب تأخر سيارة الإسعاف فخان زوجي المولود بين الصخور كما أبعثت طفلة ممد عينيها وهي في شهرها السادس تزدري الوضع الصحي في المنطقة ولعدم الحصول على الرعاية الطبية الكريمة.

ولادة بالطرق البدائية

أما عائلة خليل وهيام خراطة وغيرهما العشرات فقد أنجبن بالطرق البدائية ومنهن دون مساعدة دلائل الخياوي ودون رعاية أو أي أدوات للمساعدة في عملية الولادة. وقالت إحدى من إن تلك النساء في المشارب البدية لا يعرفن

لا تتوكل معاناة أهالي الأغوار في محافظة أريحا عند التنقلات الانتقال والتضييق المستمر عليهم، لترميهم من سلة فلسطين الفلانية، ولا عند شع الجياه ومصر مناطق الزحف، بل إن تلك المنطقة تختار إلى العمارات الطرية، ولا تتوفر لقرى في سيارة إسعاف تنتقلهم إلى أقرب العيادات التي قد تبعد 15 كيلومتراً. في الأغوار كثير من النساء أنجبن في الطريق الطويل إلى المستشفى، أما معرفة جنس الجنين، فتراف لا تسعى إليه معظم النساء هناك. «الحال» رأت منطقة الأغوار، والتقت عدداً من



الأغوار.. حيث لا تعليب ولا تزييف ولا فيسبوك

نموذج من المواد الصحفية التي أنتجها الطلاب المشاركون ضمن مفهوم «الإعلام بالمجاورة» (صحيفة الحال الصادرة عن مركز تطوير الإعلام المشاركون بجامعة بيرزيت - العدد 106).

الصحفي "وكيل المجتمع"، وأحث الطلبة على استحضارها في مساهمهم لفهم دورهم وعلاقتهم بالمجتمع، وإدراك السلطة الشرعية التي يمتلكونها وتخولهم دخول منازل المواطنين وعرض قضاياهم إنها عبارة يفترض أن توجه بوصلتهم أمام تنامي النقاش حول التقنية وصناعة الإعلام ومفاهيم الريادة ومتطلبات السوق (كمكان العمل وكالجمهور)، لكنها لا تفلح في تحقيق المراد منها لكونها معزولة عن السياق العام لعملية التدريس، وكذلك لغياب الربط المؤسسي بين مهارات الصحافة وممارستها التقنية وعملية الفهم والوعي بالمجتمع الذي توفره حقول العلوم الاجتماعية المختلفة. ويشير مصطلح العلوم الاجتماعية إلى مجموعة من التخصصات الأكاديمية التي تهتم بالمجتمع وعلاقات الأفراد مع بعضهم داخل المجتمع مثل: علم الإنسان وعلم الاقتصاد وعلم النفس وعلم الاجتماع. وقد يشمل غالباً بمعناه الأوسع العلوم الإنسانية مثل علم الآثار والدراسات الإقليمية ودراسات الاتصالات والدراسات الثقافية والتاريخ والقانون وعلوم اللغة والعلوم السياسية...

وفق التعريف السابق، يتضح أن حقول الصحافة والإعلام قد من نفس "قماشة" حقول العلوم الاجتماعية مثل علم الاجتماع وعلم النفس..

وللدقة يمكن القول إن علم الاتصال علم حديث خرج من رحم العلوم الاجتماعية، وأي محاولة أو عملية لفصله التعسفي عن غيره من الحقول المعرفية في الجامعات "كارثة حقيقية"، وصلت حدودها في عدم استفادة كليات الصحافة والإعلام من تخصصاتها القريبة،

بل أصبح عادياً التفاخر بعملية الفصل حتى إن دراسة عربية بعنوان "نظم تعليم الصحافة والإعلام في دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا: مشكلات قديمة مستمرة وتحديات جديدة" توصلت إلى أن "مسألة لجوء العديد من الجامعات إلى تكليف أساتذة من تخصصات متعددة في العلوم الاجتماعية والإنسانية للتدريس في برامج الصحافة والإعلام" يُعتبر عيباً ونقيصة.

لقد أنتج الطلبة المشاركون في درس «التعليم بالمجاورة» مواد صحفية بعد أن جمعوا مقابلات من أهالي الأغوار الشمالية الفلسطينية عن احتياجاتهم وهمومهم، حتما كانت المخرجات مختلفة عن تلك التي تنجز من المكاتب وعلى إيقاع النشر الحديث.

وخلصت الدراسة أيضاً إلى أن تأثير مدارس وكليات ومعاهد الإعلام بقي محدوداً في تطور إعلام مهني وصناعة إعلامية مستقلة إلى جانب العوامل الأخرى المرتبطة بالتطور السياسي والاجتماعي للدول المستهدفة. (2)

وشملت الدراسة رصد ومراجعة البرامج التعليمية في 120 مؤسسة تعليم عال في تسع دول هي الأردن وفلسطين وسوريا ولبنان والعراق

ومصر وتونس والجزائر والمغرب، وتوصلت إلى أن البرامج والتخصصات التقليدية مسيطرة على خارطة البرامج التعليمية التي تقدمها هذه المؤسسات، وأن معظم هذه البرامج متشابهة ومكررة، مع غياب برامج تعليمية حديثة تتماشى مع الاتجاهات المعاصرة.

ورأت أيضاً أن هناك نقصاً حاداً في أعضاء الهيئات التدريسية المتخصصين في مجالات الصحافة والدراسات الإعلامية والاتصال الجماهيري، وأن هناك استمراراً للأساليب التقليدية في تعليم مساقات الإعلام ومقاومة بعض الأساتذة للتغيير، وكذلك ضعف الخبرات المهنية لأعضاء الهيئات التدريسية.

أما الأكاديمية اللبنانية الدكتور وفاء أبو شقرا فتتعلق من حقيقة العلاقة البديهية بين علم الاجتماع وحقول الإعلام، فالأول يتناول جميع نماذج العمليات التي تحدث في المجتمع، كالتعاون والتنافس والصراع والتوافق والتثقيف والتنشئة والتنمية وإدارة الأزمات وغيرها، وهي كلها عمليات يؤدي فيها الفعل الاتصالي - بشئى عناصره ووسائله - دوراً محورياً فيجعل الصحفيين بحاجة إلى "العدّة" المفاهيمية للعلوم الاجتماعية، من أجل القيام بكافة الوظائف الإعلامية. (3)

لقد قامت أبو شقرا بالتقصي في عينة من جامعات تسع دول عربية فيها كليات للصحافة، بغية التعرف على مدى اعتمادها لمنهج "متعدد التخصصات" لتصل إلى خلاصة: مفادها أن هذه الجامعات تركز كثيراً على التأطير النظري والنواحي التقنية والتطبيقية، وهو ما يجعلها متقاربة إلى حد بعيد مع ما



تعيد تجربة «الإعلام بالمجاورة» الاعتبار للمجتمع بدلا من التركيز على «الجمهور» إذ تمكن الصحفيون من التواصل الفعال ومعايشة هموم الأهالي عن قرب (تصوير: عصام ريماي - غيتي).

تقدّمه مراكز التدريب الصحفي، وفي المقابل، هناك نقص واضح في تدريس كل ما من شأنه أن يزود الطالب بمعارف في المجالات المتداخلة بقوة مع اختصاصه.

للمدقق يبدو أن هذا الدرس الحيوي والتفاعلي من نوع مختلف تماماً؛ أي أنه درس قادم من عالم لا يمتّ بصلة لطريقة تدريس الجامعات بصفتها «مؤسسات» تسيّجها جدران مانعة إلا نادراً، وهو ما جعل من هذه التجربة حدثاً لم يتكرر.

انطلاقاً من هذه العناصر، نطرح السؤال الأبرز: كيف يمكن تدريس العلوم الاجتماعية للطلبة الصحفيين في ظل صعوبات كثيرة في مقدمتها طبيعة الخطط الدراسية، وتنامي متطلبات العمل الصحفي بفعل التطورات التكنولوجية، وتراجع حضور العلوم الاجتماعية في الجامعات ذاتها؟ علينا الاعتراف أن التعليم في الجامعات عملية غير ديمقراطية؛ لأن الطالب حتى وهو يختار تخصصه الدراسي، سيبقى أسيراً لخطط التدريس الجامدة والمقيدة التي تحدّد طبيعة تحصيله المعرفي. وأستحضر في هذا السياق تجربة تقدمها إحدى كليات الصحافة في الجامعات الأمريكية؛ إذ توفر إمكانية واسعة لاختيار الطالب مجموعة من المساقات التي تطرحها الكليات في إحدى الحقول الإنسانية والاجتماعية

يواجه تحديات جسيمة؛ من أبرزها تعدد الموضوعات التي يتعين على طالب الصحافة دراستها، التي تتزايد باستمرار بفعل الطفرات التكنولوجية المتلاحقة، فضلاً عن الإشكاليات الداخلية التي تعاني منها معظم كليات الإعلام وأقسام الصحافة.

يشكل فهم الصحفي لدوره وسلطاته في زمن تهمين فيه المنصات الرقمية وتُتاح الفرصة للجميع بأن يكون ناشراً، التحدي الأبرز الذي يواجه الصحفي اليوم. وكما يحدث ذلك علينا أن نبذل جهداً كبيراً لفكّ حالة الخصومة الراسخة بين الصحافة والعلوم الاجتماعية؛ فالجزر المعزولة التي نعيش في فيها تتناقض مع التداخل الحاصل بين الحقول، وهي تداخلات تفرضها تطورات العصر مثلما فرضتها سابقاً مراحل تطور العلوم المعرفية ذاتها.

خارج تخصص الصحافة، بمعنى أن طالب الصحافة يمكنه أن يختار من تخصصات العلوم الاجتماعية حزمة من المساقات تصل إلى 40٪ من المساقات التي عليه اجتيازها للتخرج. ولعل ميزة هذا الشكل الديموقراطي من التعليم أنه يمنح الطالب مساحة واسعة من الحقول العلمية التي يختارها وفق ميوله واهتماماته أو من خلال إرشاد طاقم كلية الصحافة وتوجيههم له. وما تعكسه هذه التجربة هو حالة من المرونة في الخطط الدراسية وانفتاحها على حقول العلوم الاجتماعية بإكساب الطلبة المعرفة الواسعة والعميقة في مواضيع يختارونها أثناء دراسة تخصص الصحافة.

ورغم فعالية هذا النظام واستجابته لحاجة ملحة تتمثل في توطيد العلاقة مع العلوم الاجتماعية فإنه

المراجع

(1) موقع نوى. "مركز تطوير الإعلام يختتم 'دورة تفاعلية مع بدو الأغوار'." رام الله: موقع نوى، 2014. <https://www.nawa.ps/ar/post/10564>.

(2) الطويسى، باسم. "نظم تعليم الصحافة والإعلام في دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا: مشكلات قديمة مستمرة وتحديات جديدة." عمان: معهد الإعلام الأردني، 2018.

(3) أبو شقرا، وفاء. "العلوم الاجتماعية في كليات الصحافة العربية.. هل يستفيد منها الطلبة؟" الدوحة: معهد الجزيرة للإعلام، 18 مارس 2024. <https://institute.aljazeera.net/ar/2594/ajr/article>.



فيليب ماير وولادة «صحافة الدقة».. قصة كتاب غير الصحافة

محمد زيدان

شهدت الصحافة منذ ستينيات القرن الماضي تحولاً نوعياً في أساليبها وأدواتها، كان من رواده الصحفي والأكاديمي الأمريكي فيليب ماير، فيما عُرف لاحقاً بـ«صحافة الدقة». في هذا المقال، نعود إلى كتاب ماير الموسوم بالعنوان ذاته، والذي قدّم فيه دعوة جريئة لتبني أدوات البحث العلمي في العمل الصحفي، خاصة تلك المشتقة من حقل العلوم الاجتماعية.

في ستينيات القرن الماضي، في كلية الصحافة في جامعة نورث كارولينا، قررت مجموعة من الطلبة كتابة قصة صحفية مشتركة حول الصورة النمطية التي التصقت بسمعة سكان المدينة التي تحتضن جامعتهم، وهي مدينة «تشابيل هيل»؛ فقد شاع عن المدينة على مدى سنوات طويلة أن أهلها شديداً اللباقة واللفظ، وأنه لا يكاد يقترب من هدوء طباعهم سكان أي مدينة أخرى في الولايات المتحدة كلها. بدأ السؤال الصحفي الأولي الذي اقترحه الطلبة آنذاك محاولةً لفحص هذه الظاهرة وتفكيكها: أهى سمعة نمطية اختلقتها الروايات الشعبية، أم حقيقة تصمد أمام الاختبار؟

كان طرح هذا السؤال وصياغته خطوة أولى تنبّه إلى ضرورة تقاطع المادة الصحفيّة مع أدوات استقصائية علمية؛ كتلك المستخدمة في حقل العلوم الاجتماعية. وضع الطلبة / الصحفيون أمامهم سؤالاً بحثياً منضبطاً: هل الصورة النمطية الشائعة عن سكان مدينة تشابيل هيل في ولاية نورث كارولينا حقيقة تسندّها الأدلة أم لا؟

حدد الطلبة ذلك السؤال ليكون إطاراً عاماً يسيّر مشروعهم الصحفي في مادتهم. منذ اللحظة الأولى، بدأ الاستئناس بالأدوات العلمية شرطاً لا غنى عنه لبناء تقرير معقول يقدم إجابة يمكن الاعتماد عليها في النقاش العام حول هذه الظاهرة الاجتماعية. ووضّع السؤال بهذه الصيغة سيكون كفيلاً بنقل العمل من حالة التعاطي التقليدي أو الوصف الصحفي للموضوع، إلى حالة من الاستقصاء وجمع البيانات المفيدة، وتفعيل الأدوات والأطر التفسيرية التي تساعد جمهور الصحافة من غير المتخصصين على فهم العالم وظواهره من حولهم.

قدمت المجموعة عدداً من الاقتراحات لاستيراد أداة من ميدان العلوم الاجتماعية قد تساعد في الوصول إلى الإجابة المطلوبة: اقترح البعض تصميم استبانة توزع على عينة من سكان المدينة تتضمن أسئلة حول خياراتهم السلوكية في مواقف معينة، أو إجراء مقابلات قصيرة شبه منظمة مع عينة من سكان المدينة، بينما اقترح آخرون الاعتماد على أدوات تحليل المحتوى، والبحث عن الأدلة المتوفرة حول الظاهرة في الصحافة، والدراسات المنشورة، والكتب والمذكرات.

لكن الأستاذ الصحفي المشرف على الطلبة الذي يشاركهم حماسهم لتوظيف مثل هذه الأدوات البحثية، كان حريصاً على الحفاظ على ذلك الخطّ الفاصل بين الصحافة والبحث العلمي. فثمة هوية خاصة للعمل الصحفي لا بدّ أن تكون حاضرة كي تحافظ على قدرتها على الوصول إلى أكبر قدر من الجمهور والتأثير فيهم؛ فالعلم مفيد وأدوات البحث العلمي دقيقة، لكن الصحافة أقوى من العلم المجرد، أو أكثر حيوية منه. هذا ما يجعل الصحافة صحافة، والعلم علماً. لذلك وصلت المجموعة بتوجيه من الأستاذ إلى اتفاق على أداة اختبار بسيطة لكنها تدلّ على حس صحفي عميق:

يقسّم الطلبة أنفسهم إلى مجموعات، كل مجموعة من طالبين. تنطلق المجموعات الثنائية بسيارات ويقودونها حول المدينة بشكل عشوائي وصولاً إلى أي إشارة ضوئية، إلى حين التمكن من الوقوف على أول خطّ من الإشارة. يتعيّن على الطالب سائق السيارة في هذا الموقف عدم التحرك حتى لو فتحت الإشارة، أما زميله الذي بجانبه فسيكون عليه استخدام ساعة المؤقت، لحساب الوقت الذي سينقضي قبل أن ينفذ صبر

السائقين خلفهم ويبدؤون بإطلاق الزامور من سياراتهم.

سيكرر الطلبة هذه التجربة أثناء الإجازة في مدن أخرى، لمراقبة سلوك السائقين في مثل هذه الحالة خارج المدينة.

اعتماداً على هذا الاختبار البسيط، توصّل الطلبة إلى نتيجة ذات دلالة من خلال حساب مدة صبر السائقين في تلك المدينة الجامعية في تشابيل هيل، ليتبين لهم عند مقارنة النتائج أنها تبلغ ضعف معدل المدة التي جرى تسجيلها في المدن الأخرى.

”
بدا السؤال الصحفي الأولي الذي اقترحه الطلبة آنذاك محاولةً لفحص ظاهرة أن سكان المدينة لطفاء، وتفكيكها: أهى سمعة نمطية اختلقتها الروايات الشعبية، أم حقيقة تصمد أمام الاختبار؟“

لم تكن هذه الأداة المشتقة من حقل العلوم الاجتماعية دالة ومفيدة في تلمّس ظاهرة اجتماعية وفحصها وحسب، بل وفّرت للصحفيين كذلك «قصة» طريفة يمكن لتوظيفها السردى المؤنسن في التقرير الصحفي ضمان إثارة اهتمام الجمهور وإقناعهم في الآن ذاته، ليقدموا شكلاً من العمل الصحفي الواعي بضرورة إنتاج مادة صحفية ممتعة من دون التخلّي عن الدقة في المعلومة. أمّا أستاذهم - وهو الصحفي الأمريكي الشهير فيليب ماير - فقد قرر عند ملاحظته سعة المجال التطبيقي

لهذا الاتجاه وفأدته تأليف كتابه المعروف: «صحافة الدقة: مدخل إلى طرائق علم الاجتماع للصحفيين»، الذي صدر أول مرة عام 1973، بهدف المساعدة على الإجابة عن أسئلة أربعة أساسية:

كيف يعثر الصحفي على المعلومات؟ كيف يمكن للصحفي تقييم هذه المعلومات وتحليلها؟ كيف يمكن ترتيبها وعرضها للجمهور بما يتجاوز فوضى طوفان المعلومات والبيانات؟ كيف يمكن تحديد مستوى الدقة المناسب صحفياً في قصة معينة؟

النقلة نحو العلوم الاجتماعية

كانت تلك النقلة نحو العلوم الاجتماعية في الصحافة قد بدأت تتشكل أسسها في بعض الدوائر الأكاديمية في الولايات المتحدة منتصف الستينيات، أي حين بدأت العلوم الاجتماعية نفسها تتلمس سبل الاستفادة من التقنيات الحاسوبية في تحليل البيانات. (1) ورغم أن فيليب ماير كان أحد أشهر روادها غير نشاطه الصحفي والأكاديمي، إلا أنه لم يكن الوحيد؛ فمن بين من رسموا الخطوط الأولى للتقاطعات بين العلوم الاجتماعية والصحافة ماكسويل ماكومبس (Maxwell McCombs) والذي قدّم عدة أوراق بحثية سابقة لكتاب ماير تدافع عن تلقيح الصحافة بالأدوات العلمية والاستفادة من البيانات في العمل الصحفي. إحدى هذه الأوراق نشرت عام 1970 في مجلة «جورناليزم كوارتالي» بعنوان: «نحو طريقة علمية في الصحافة» (A Scientific Method of Reporting)، تطرقت إلى اختلاف معنى العمل

الصحفي في تلك الفترة عمّا كان يعنيه في العقود السابقة، وضرورة اعتماد الطرائق العلمية في التحليل الكمي والنوعي للحفاظ على مكانة الصحافة والثقة بها وتعزيز صلتها باحتياجات الجمهور. كما نشر ماكومبس عام 1971 فصلاً ضمن سلسلة بعنوان «البحث العلمي في مجال الأخبار: من أجل صحف أفضل» (News Research for Better Newspapers)، وهي سلسلة بحثية صدرت في عدة مجلدات مطلع سبعينات القرن العشرين، عيّنت بنشر آخر الأبحاث العلمية من مختلف المصادر بشأن الصحف وإنتاج المواد الصحفية وتلخيصها لفائدة العاملين في المجال، وتعزيز القدرة على تقديم صحافة محلية دقيقة وعرضها بطريقة مؤثرة في الحيز (الفضاء) العام.

الأستاذ الصحفي المشرف على الطلبة الذي يشاركهم حماسهم لتوظيف الأدوات البحثية، كان حريصاً على الحفاظ على ذلك الخط الفاصل بين الصحافة والبحث العلمي.

أما ربما أول من صاغ مصطلح «صحافة الدقة»، فهو الخبير الإعلامي الأمريكي إيفيريت دينيس، وذلك أثناء تدريسه مادة عن «الصحافة الجديدة» عام 1971 في جامعة أوريغون، (2) اهتمت بدراسة أعمال مدرسة جديدة في الصحافة الإنسانية في الولايات المتحدة بدأت في الستينيات، وكان من أبرز روادها

توم وولف، وغاي تاليس، ونورمان ميلر، وهانتر طومسون، واشتهرت كتاباتهم في مجلات عريقة مثل الأتلانتيك، ورولينغ ستون، وهاربرز، ونيويورك ريفيو وغيرها. (3)

لكن الفضل في تعميم هذه الأفكار والملاحظات خارج الأكاديميا سيظل يعزى إلى ماير وكتابه الذي نشرته مطبعة جامعة إنديانا عام 1973، ثم صدر بطبعة محدثة عام 1978 وصولاً إلى الطبعة الجديدة المحدثّة بالكامل من الكتاب التي صدرت أول مرة عام 1991 بعنوان «صحافة الدقة الجديدة» (The New Precision Journalism)، التي عكست نطاق التطورات التقنية على مستوى الممارسات والأدوات، وتشتمل على عرض موسّع لتاريخ الصحافة في التقليد العلمي، (4) ثم صدرت طبعة رابعة موسعة عام 2002، تأخذ بالاعتبار ما استجد من تطورات في المجال.

حين بدأ ماير العمل محرراً في صحيفة «توبيكا ديلي» المحلية في ولاية كنساس الأمريكية منتصف خمسينات القرن العشرين، لم تكن أجهزة الحاسوب قد انتشرت بعد؛ لأنها ضخمة ومكلفة وبطيئة ويصعب على غير المتخصص استخدامها. رغم ذلك، استشرّف ماير مكاناً لهذه التقنيات في غرف الأخبار، وأعزته هذه المركزية للبيانات في عالم الحوسبة وأثارت فيه فضولاً صحفياً عميقاً دفعه لاستكشاف إمكانات استعارة تلك الطاقة واستغلالها في عالم الصحافة. (5)

تعرّزت تلك الحاسة لدى ماير عام 1967، بعد انخراطه في زمالة بحثية للصحفيين في جامعة هارفرد حاول فيها دراسة ظاهرة استطلاعات الرأي في السياق المحلي الأمريكي وتدخل التقنيات الحاسوبية فيها.

وقد تزامن ذلك الانشغال البحثي لماير مع انتفاضة للأمريكيين السود ذلك العام في مدينة ديترويت

التابعة لولاية ميشغن، والتي قتل فيها 23 مدنيًا على الأقل. كانت الرواية التي تناقلتها وسائل

إعلام سائدة تصر على أن المتظاهرين كانوا في غالبيتهم من الفقراء ومن غير المتعلمين الذين هاجروا إلى المدينة مؤخرًا قادمين من الجنوب. إلا أن ماير، وبلاستفادة من أدوات العلوم الاجتماعية ومهارته في تقمص دور الباحث الاجتماعي، تمكّن إلى التوصل إلى رواية أخرى أكثر دقة تؤكد أن المتظاهرين كانوا في الواقع من أهل المدينة الأصليين وليسوا من المهاجرين إليها، وأنهم يتوزعون على خلفيات تعليمية وطبقية متعددة.

تلك المساهمة الصحفية كانت كافية في نظر لجنة جائزة بولتزر لمنح الصحيفة التي عمل فيها ماير، «ديترويت فري برس» جائزة عن تغطيتها المتزنة لتلك الأحداث العصبية. وبهذا التكريم الذي حازه ماير عام 1968 التفتت الصنعة الصحفية الأمريكية إلى فائدة استخدام العلوم الاجتماعية وتمكين الصحفيين من بعض أدواتها. بدا الأمر وكأنّ الصحافة دخلت في طور جديد: لم يعد كافيًا للصحفي امتلاك الشغف والفضول والمهارة في الكتابة، بل صار عليه أمام التفجّر الكبير في البيانات المتوفرة حوله أن ينخرط في مهام تقنية أكثر تعقيدًا. (6) ولمساعدة الصحفيين في معرفة هذه المتطلبات الجديدة للصنعة وتعلمها، وجد ماير فرصة لإتمام كتابه وإقناع الناشر بفكرته، حتى صار هذا الكتاب خلال وقت قصير بحسب نيويورك تايمز «أحد أهم الكتب التي كتبت عن الصحافة على الإطلاق»، كما صار مؤلفه مرشحًا لرئاسة عمادة كلية الصحافة في جامعة كولمبيا، وكان حينها لم يتجاوز 56 عامًا من عمره. (7)

لقد شكّلت انتفاضة ديترويت وحركة الحقوق المدنية والحراكات المناهضة للعنصرية والتدخلات العسكرية الأمريكية خلال الحرب

PRECISION JOURNALISM

4th edition

A Reporter's Introduction to Social Science Methods



Philip Meyer

كتاب: «صحافة الدقة: مدخل إلى طرائق علم الاجتماع للصحفيين»، والذي صدر أول مرة عام 1973 (غيتي).

وتأثيره. وفي هذا السياق نجد أن الصحفي الشهير بوب وودوارد الذي ساهم في ذلك التحقيق مع كارل بيرنستين، يشير بوضوح إلى أن المقياس الذي يلزم اعتماده لتقييم الصحافة هو «جودة» المعلومات التي تقدمها، وليس «المبالغات الدرامية» و«المفرقات» الشكلية التي ترتبط بها. (10)

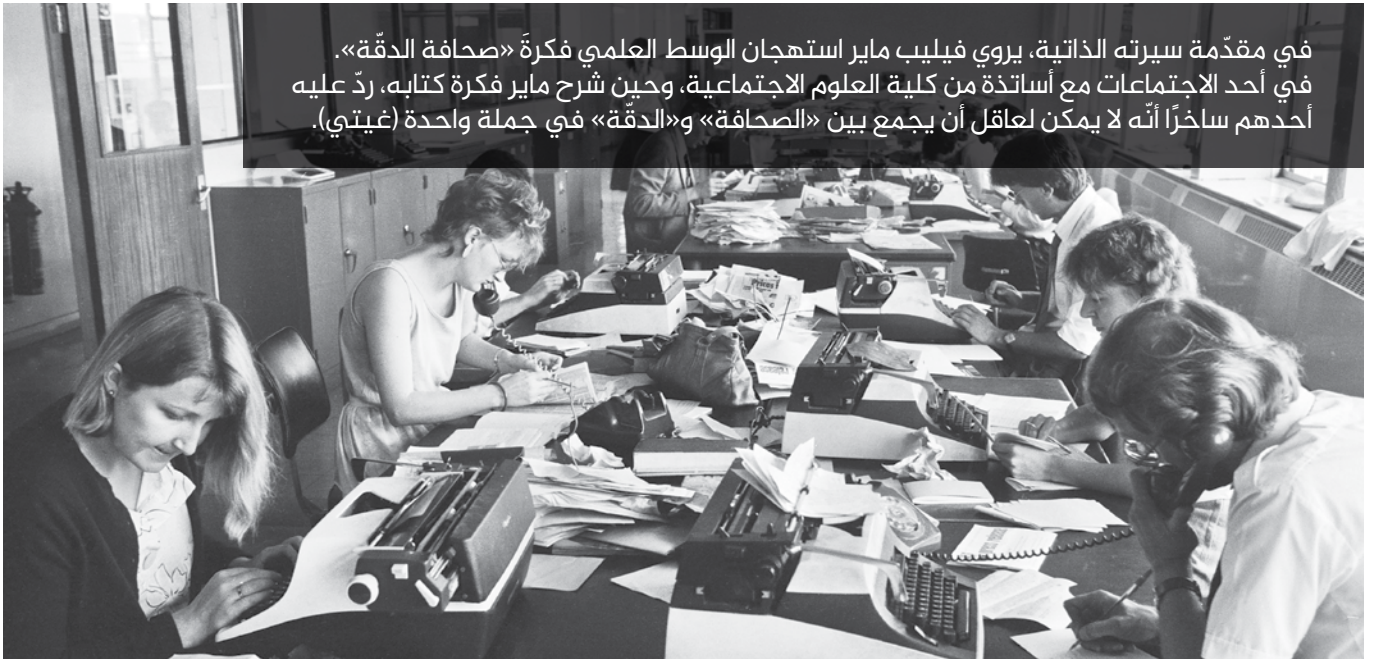
إلا أن الكتاب في تأكيد على أهمية هذا المنهج الصحفي وتطوير أدواته بالانفتاح على التخصصات الأخرى، لا ينجح إلى التعريض بأشكال صحفية أخرى تقليدية سائدة؛ ذلك أن فيليب ماير لا يختزل الصحافة في ثنائية تبسيطة تجعل ما يقابل صحافة «الدقة» هو صحافة «اللادقة»: فالكتاب يمثل دعوة تشجع الصحافة على التقاطع مع الحقول الأخرى وأدواتها؛ لأن ذلك سيعزز مصداقية الصحفي على المستويين النظري والعملي معًا. والصحفي من خلاله حرصه على الوصول إلى البيانات الجيدة والعناية

اعتمادا على هذا الاختبار البسيط، توصل الطلبة إلى نتيجة ذات دلالة من خلال حساب مدة صبر السائقين في تلك المدينة الجامعية في تشابيل هيل، ليتبين لهم عند مقارنة النتائج أنها تبلغ ضعف معدل المدة التي جرى تسجيلها في المدن الأخرى.

أسهم كتاب «صحافة الدقة» وعزز الصلة والتقاطع بين العمل الصحفي والعلوم الاجتماعية، وهو فضيحة «ووترغيت» (9) في مطلع سبعينات القرن العشرين، التي كشفت عن الإمكانيات التي تحملها الصحافة الاستقصائية التي تحمي نفسها بالبيانات والطرق العلمية في جمعها ومقارنتها وتحليلها، وبما يعزز من مصداقية العمل الصحفي وجذته

الباردة سياقًا هامًا لتطور عمل ماير وزملائه وتعزيز أهمية الفكرة التي قدمها في الكتاب بشأن ضرورة عناية غرف الأخبار بتكوين أساسي للصحفيين والمراسلين في مجال العلوم الاجتماعية وأدواتها البحثية؛ فقد حدد ماير بعض جوانب الضعف والخطورة في العمل الصحفي غير المعتمد على البيانات وجمعها وتحليلها وفق منهج علمي؛ إذ يكون التأثير بالانطباعات العامة والتحيزات التأكيدية سببًا في إطلاق التعميمات وعدم منح مساحة لنطاق أوسع من الأصوات بعيدًا عن التشنج والاستقطاب. وفي هذا السياق نفسه، يعدّ العمل الصحفي الذي قدّمه الصحفي الأمريكي لويس هاريس في التقارير التي أعدها لصالح مجلة «نيوزويك» عن الأمريكيين السود في سياقات محلية، واعتماد أدوات استبائية مستخدمة في البحوث الاجتماعية لفهم وجهات نظرهم بعيدًا عن الاختزال عملاً رائداً. (8) ثمة حدث بارز آخر قفزت معه

في مقدمة سيرته الذاتية، يروي فيليب ماير استهجان الوسط العلمي فكرة «صحافة الدقة». في أحد الاجتماعات مع أساتذة من كلية العلوم الاجتماعية، وحين شرح ماير فكرة كتابه، ردّ عليه أحدهم ساخراً أنه لا يمكن لعامل أن يجمع بين «الصحافة» و«الدقة» في جملة واحدة (غيتي).



بمعالجتها وفق أطر نظرية معتبرة في العلوم الاجتماعية والسلوكية، سيكون أكثر تأثيراً وإقناعاً، وأقدر على تحييد أكبر نسبة ممكنة من أشكال التحيز التي قد تتسلل إلى العمل الصحفي التقليدي؛ لكنه مع ذلك لا يدعو إلى قطيعة مع تقليد المقابلة الصحفية والأسئلة المباشرة والحديث مع المصادر في الميدان كطريقة للحصول على المعلومات وتوسيع وجهات النظر حول مسألة معينة منظور فيها صحفياً. في مقدمة سيرته الذاتية، يروي

فإن «صحافة الدقة» ما يزال أحد المراجع الأساسية في هذا المجال، وربما أول مفتاح يبحث عنه الصحفي المبتدئ لمعرفة نقاط الاتصال بين الصحافة والعلوم الاجتماعية وأدواتها، (12) وهو ما يدل عليه وجود الكتاب الثابت في المناهج التدريسية للصحافة في العديد من الجامعات والمعاهد عبر العقود الماضية؛ لتدريس نمط جاد من العمل الصحفي المتخصص الذي ما يزال يتطور حتى اليوم. (13)

فيليب ماير استهجان الوسط العلمي فكرة «صحافة الدقة». في أحد الاجتماعات مع أساتذة من كلية العلوم الاجتماعية، وحين شرح ماير فكرة كتابه، ردّ عليه أحدهم ساخراً أنه لا يمكن لعامل أن يجمع بين «الصحافة» و«الدقة» في جملة واحدة. أخبروه أن أكثر ما يمكن للصحفي فعله هو سؤال العلماء عن نتائج أبحاثهم، وليس اقتراض أدواتهم ومناهجهم وتطبيقها في عمله. (11) أما اليوم، وبعد انقضاء نصف قرن تقريباً على صدور الكتاب،

” المراجع

- (1) Meyer, Philip. Precision Journalism: A Reporter's Introduction to Social Science Methods. 4th ed. Lanham, MD: Rowman & Littlefield, 2002.
- (2) Sterling, Christopher H., ed. Encyclopedia of Journalism. Thousand Oaks, CA: SAGE Publications, 2009.
- (3) Beuttler, Bill. "Whatever Happened to the New Journalism?" Master's project, Columbia University Graduate School of Journalism, 1984. https://www.billbeuttler.com/whatever_happened_to_the_new_journalism__11929.htm.
- (4) Meyer, Philip. The New Precision Journalism. Carolina Data Desk. Accessed May 10, 2025. <https://carolinadatadesk.github.io/pmeyer/book/Chapter1.htm>.
- (5) Risen, Clay. "Philip Meyer, Reporter Who Pioneered Data-Driven Journalism, Dies at 93." The New York Times, November 8, 2023. <https://www.nytimes.com/2023/11/08/business/media/philip-meyer-dead.html>.
- (6) Meyer, Philip. Precision Journalism: A Reporter's Introduction to Social Science Methods. 4th ed. Lanham, MD: Rowman & Littlefield, 2002.
- (7) <https://www.nytimes.com/2023/11/08/business/media/philip-meyer-dead.html>.
- (8) Rodgers, Harrell R., and Charles S. Bullock. "Political and Racial Attitudes: Black Versus White." Journal of Black Studies 4, no. 4 (1974): [page].
- (9) فضيحة ووترغيت هي قضية تجسس سياسي تورّطت فيها إدارة الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون، وانتهت باستقالته عام 1974، بعدما كشفتها الصحافة الاستقصائية وأدت إلى محاكمات سياسية وجنائية
- (9) Taliaferro, Allison. "Journalism Felt like a Second Nature." Hays Free Press, May 3, 2023. <https://www.haysfreepress.com/2023/05/03/journalism-felt-like-second-nature/>.
- (10) Meyer, Philip. Paper Route: Finding My Way to Precision Journalism. Columbia, MO: University of Missouri Press, 2018.
- (11) Weaver, David H., and Maxwell E. McCombs. "Journalism and Social Science: A New Relationship?" The Public Opinion Quarterly 44, no. 4 (1980): 477–494.
- (12) Casey, R. D. "Journalism, Technical Training and the Social Sciences." Journalism Quarterly 9, no. 1 (1932): 31–45.

الفضاء الأنثروبولوجي والاستشراق الإعلامي

تيسير أبو عودة

ينظر إلى الاستشراق الإعلامي كامتداد للرؤية الأنثروبولوجية الغربية للجنوب العالمي كرسته العولمة والثورة الرقمية والدراسات الثقافية التي فرضت شروطا سردية وأيديولوجية على عالم الصحافة وتقاطعاته مع الأنثروبولوجيا والمنهج الإثنوغرافي في سياق علاقة الغرب بالشرق. ما جذور هذه التصورات والتمثيلات والاستشراقية؟ وكيف يمكن الدمج بين المنهج الإثنوغرافي والأنثروبولوجيا الإعلامية لمواجهتها؟

لقد شكلت الحروب الثقافية في أمريكا وبريطانيا وأوروبا خصوصا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وفي ضوء نشوء الدول القومية الحديثة - وبعد عقود من نشوء حركات التحرر ما بعد الكولونيالي (الاستعماري) في العالم الثالث، ونهاية الحرب الباردة - انعطافة مهمة في تاريخ وصيرورة أنثروبولوجيا الإعلام والإعلام الجماهيري بصورة عامة في بدايات الثمانينات، ومطلع التسعينات من القرن العشرين وصولا إلى الثورة المعلوماتية في القرن الواحد والعشرين وانتهاء بحقبة ما بعد أحداث سبتمبر/ أيلول وحتى النزعة الترامبية الشمولية في يومنا الراهن.

لقد تجلّت هذه التحولات في خضم صناعة التصورات الاستشراقية حول صورة الآخر وللأوروبي، والعربي المسلم على وجه الخصوص. لقد ظلت أنثروبولوجيا الإعلام والثورة المعلوماتية في الميدان الأكثر فاعلية وحيوية فيما يخص مركزية العولمة الأمريكية الجديدة في مناهضتها لمعسكر الشيوعية في البداية ثم الإسلام لاحقا، ومحاولتها فرض قواعد اللعبة الجديدة تجاه ثورة المعلومات والإنترنت، والعنف البصري، والإعلام، وتصنيع الهويات الجديدة، والإعلام الديماغوجي، والرأسمالية المتأخرة، والشوفينية، وخطاب رهاب الأجانب والإرهاب، ورهاب الهجرة لغير الأوروبيين باتجاه أمريكا وأوروبا، وتغول الإمبراطوريات الإعلامية الكبرى، مما جعل علاقة الإعلام والأنثروبولوجيا علاقة فردية وجماعية وسوسيولوجية وسيكولوجية معقدة، لا يمكن تهملها، في ضوء ما يسميه الفيلسوف تشارلز تيليور مصادر الذات والوعي على مستوى تشكّل الهويات والذات فرديا وجماعيا.

لقد فرضت العولمة والثورة الرقمية والمركزية الغربية والدراسات بين نصية Interdisciplinary Studies

والنظرية الأدبية، والدراسات الثقافية، والنقد الأدبي شروطا سرديّة وأيديولوجية على عالم الصحافة وتقاطعاته مع الأنثروبولوجيا والمنهج الإثنوغرافي في سياق علاقة الغرب بالشرق، والمجتمعات التأويلية الحديثة. لا بد لنا أن ندرك أن مثل هذه المجتمعات التأويلية كما يسميها علماء الدراسات الثقافية تنظر للخبر الإعلامي بوصفه جزءا لا يتجزأ من السياق الثقافي والإثنوغرافي لهذا المجتمع، ولا يمكن فهم هذا الخبر بعيدا عن سياقه الأنثروبولوجي والمحلي والعالمي والاقتصادي والاجتماعي والفردية والجماعي. ومن منظور الدراسات الثقافية، فإن تأويل الخبر وتفسيره هو جزء عضوي من عالم الصحافة وانتشار الخبر وإنتاجه وصناعته عبر الصحف والعالم الرقمي، وكيفية تلقي الجمهور لهذا الخبر وتشكلات الوعي الجماهيري، وصناعة الكلمات وتشكيل الخطاب. (1)

لا شك أن التمثيلات الاستشراقية والأنثروبولوجية لشمال أفريقيا والمغرب الكبير تسقط إعلاميا في كثير من الأحيان على الشرق الأوسط دون الأخذ بعين الاعتبار اتساع نطاق الهويات والطبقات والعادات واللهجات والمكون الاجتماعي والأنثروبولوجي والسياسي والجغرافي.

الاستشراق الأنثروبولوجي في الإعلام الرقمي

تبيّن الدراسات الحديثة أن عالم الإنترنت لم يعد آمنا قط، بل أصبح

منصة عالمية يتسلّح بها الكثير من أتباع أقصى اليمين في بريطانيا وأمريكا وكندا وأوروبا لمهاجمة المجتمعات الإسلامية، وبث خطاب الكراهية، ومن المؤسسات الرقمية الكارهة للمسلمين: The Anti-Defamation League رابطة مكافحة التشهير، و رابطة الدفاع عن اللغة الإنجليزية The English Defense League، و رابطة بريطانيا أولا، ومبادرة الدفاع عن الحرية الأمريكية AFDI، ولا ننسى مجموعات النازيين الجدد المعادين للمسلمين والعرب على شبكات التواصل الاجتماعي. (2)

لقد ظل سؤال المفكر إدوارد سعيد حول هيمنة الإعلام الغربي على تصورات وتغطية الإسلام بعد الثورة الإيرانية نصا تأسيسيا لكثير من دارسي الأنثروبولوجيا الإعلامية في سياق الاستشراق الإعلامي والإسلاموفوبيا. (3) ظل هذا الخطاب الأنثروبولوجي الإعلامي مركزيا بوصفه خبرا ثابتا ونمطيا يختزل أكثر من ملياري مسلم باعتبارهم جوهر هوياتيا يرمز للتخلف، والرجعية والعنف، وكراهية اليهود والمسيحيين والغرب، والخطر الذي يهدد الديمقراطية الغربية والتقدم، وكل قيم الليبرالية. لا ننسى أيضا أن ما فعله الإعلام الغربي في أفلام هوليوود ساهم أيضا في اختزال وتسطيح صورة العربي المسلم بوصفه الهمجي والبربري والشهواني والمتخلف، والعاطفي واللاعقلاني والعنّين ثقافيا وحضاريا والمصاب بعصاب العنف والإرهاب والتطرّف ومرض النكوص. (4) يكفي أن نشاهد فلم «الريح والأسد» (1975)، وفلم «تحت الحصار» (1986)، و«مطلوب حيا أو ميتا» (1987)، و«القناص الأمريكي» (2014)، ليتبين لنا حكم تغطية الإعلام الاستشراقية على كل ما له علاقة بالإسلام وصورة العرب المسلمين في الوعي الإعلامي الغربي. يبين لنا المفكر جاك

شاهين في كتابه «شيطنة العرب في السينما الأمريكية» كيف أن أكثر من 900 فيلم في هوليوود تعكس صورة شيطانية للعرب والمسلمين، وكأنهم جميعاً مدججون بغريزة الموت والعنف والشهوانية المقرزة وانعدام الكفاءة والثراء الفاحش والتخلف والرجعية وكراهية التقدم والحضارة الغربية. (5) حتى إن كبار الأنثروبولوجيين أمثال كليفورد كيتزر وإنست جيلنر وبرايين تيرنر قد أضلوا صورة استشراقية للمغرب الإسلامي الاستشراقي: الإسلام الهرمي والمركزي الذي تشكل في المنظومة المدنية والحضرية، والإسلام البدوي خارج حواضر المدينة، والذي يضم القبائل البدوية، والتي تفرض عليها المدن هيمنة سياسية وسوسولوجية من خلال القمع والاحتواء والتدجين والإلغاء، وربما نلمح هنا إحالة مبطنة ولكنها مضللة لطروحات ابن خلدون حول البداوة والحضارة في بناء المجتمعات العربية، وعلاقتها بالعصبية والشوكة والحواضر ومكون البداوة.

”
ورغم نظرة الأنثروبولوجيا المتعالية في باكورة القرن العشرين تجاه الإعلام بوصفه حقلاً يتكئ كثيراً على الارتجال، وسرعة كتابة التقارير، والمنهجية المتسرع أحياناً، والوصفية الجامدة أحياناً، بدأ رواد الأنثروبولوجيا يرون أهمية المزاوجة بين المنهج الإثنوغرافي السردى والأنثروبولوجيا الإعلامية.“

لا شك أن مثل هذه التمثيلات الاستشراقية والأنثروبولوجية لشمال

التلفزيونية والمكون الديني في صقل شخصية أميرة، ويتبين لنا وجود علاقة وطيدة بين تكوين أميرة الأخلاقي والوجداني وبين المسلسلات التلفزيونية والراديو وحضورها للدروس الدينية في المساجد المجاورة في القاهرة.

الثقافة والحضارة والأنثروبولوجيا الإعلامية

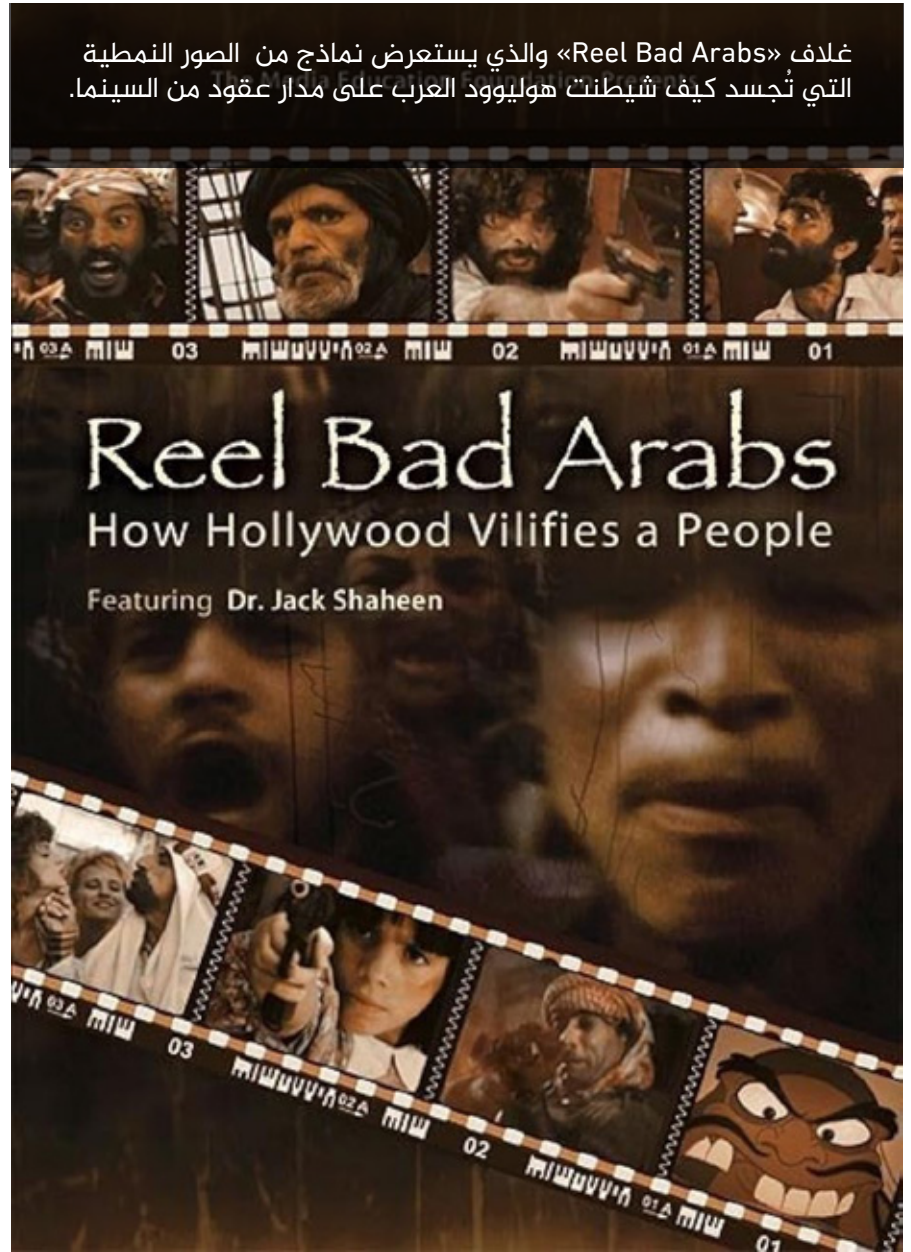
ورغم نظرة الأنثروبولوجيا المتعالية في باكورة القرن العشرين تجاه الإعلام بوصفه حقلاً يتكئ كثيراً على الارتجال، وسرعة كتابة التقارير، والتحليل المتسرع أحياناً، والوصفية الجامدة أحياناً، بدأ رواد الأنثروبولوجيا يرون أهمية المزاوجة بين المنهج الإثنوغرافي السردى والأنثروبولوجيا الإعلامية، خصوصاً في أعقاب طروحات ريموند وليامز، وستوارت هول، ونظرية الفضاء العام الإعلامي لدى هابرماس، والمجتمعات المتخيلة في طروحات بنيديكت أندرسون.

ظلت الثقافة والحضارة مفهومان مركزيان في متن أنثروبولوجيا الإعلام الغربي، وهنا أقصد الثقافة بوصفها نقيض الطبيعة والمجتمعات البدائية، فالثقافة هنا هي زبدة الحداثة بكل ما تحمل من مكونات الرفاه الاجتماعي، وإنجاز أعلى مستويات العيش في كنف الدولة القومية الجديدة، وتحقيق التعليم لكل طبقات المجتمع، وترجمة العقد الاجتماعي في خضم علاقة الدولة بالمواطنين، ولكنها في النهاية ثقافة انتقائية ومركزية تستند إلى نزعة التفوق لدى الرجل الأبيض، والهيمنة الاقتصادية باسم السوق الحرة، والرأسمالية المتوحشة، واحتكار السلع، وتسليع القيم باسم صيرورة الاستهلاك، والاتكاء على خطاب

أفريقيا والمغرب الكبير تُسقط إعلامياً في كثير من الأحيان على الشرق الأوسط دون الأخذ بعين الاعتبار اتساع نطاق الهويات والطقوس والعادات واللهجات والمكون الاجتماعي والأنثروبولوجي والسياسي والجغرافي؛ فتصبح صورة الإسلام بأكملها رهينة ثنائيات استشراقية نمطية، ويتم استبعاد المكون الأنثروبولوجي المتعدد والثري والمتنوع في الوطن العربي، مثل البدون (الذين لا يحملون الجنسية) في الكويت، وبدو بئر السبع في جنوب فلسطين، وأهل عجلون في الأردن، وطقوس أهل قرية بصيرة في الطفيلة فيما يخص المآتم والأفراح ومركزية العائلة والمصاهرة، وبدو الأردن في البادية، وأهل السويداء في الشام، وأهل الصعيد في مصر، ومسيحيي سوريا ولبنان، وشعائر وطقوس سكان سيناء في مصر، وأهل الجنوب في تونس والمغرب، والطوارق في ليبيا، والفجر في الوطن العربي، وحتى الكثير من التصورات الجندرية للمرأة المصرية واختزال الإعلام لدورها في ميدان التحرير في سياق الربيع العربي. لعل المطلع على فيلم «ذيب» الأردني (6) يلمح شكلاً أنثروبولوجياً مغايراً لصورة بدو الأردن عن الصورة المشوهة لقاطني الأردن في القرن التاسع عشر، التي قدمها ألكسندر كينليج في كتابه «الشرق» (7). كما قَدِّمَت الأنثروبولوجية الفلسطينية ليلي أبو لغد تصورات أنثروبولوجية مناهضة للتصورات الإعلامية الاستشراقية عن المرأة المصرية على مستوى النموذج الذاتي والجندري والاجتماعي والسيكولوجي. (8) تقدم لنا أبو لغد الفتاة المصرية أميرة بوصفها رمزا للمرأة الريفية المحاربة، التي تحاصرها ظروف المعيشة الصعبة والفقر والعمل الشاق لساعات طويلة، ولكنها تبين لنا علاقة الميلودراما

والطبقة الاجتماعية والفضاء الخاص والعام للدين والتدين. (10) ناهيك عن انتشار ثورة الإعلام المعلوماتي والتي صارت رافعة أساسية للدولة القومية الحديثة خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية لتشكيل الوعي الجماهيري والهيمنة الثقافية وأدلجة الخطاب السياسي وصناعة الإذعان وصناعة الإنسان الجديد الذي يأتذر بالقيم الليبرالية الجديدة بما فيها: النمط الاستهلاكي المتطرف وخصخصة مؤسسات الدولة وتسليع كل قيمة باسم الربح والخسارة والنجاح والفشل في سوق مفتوحة متوحشة، ورقمنة الإعلام والتعليم وجميع مؤسسات الدولة والقطاع الخاص، وجعل الإعلام بكل أشكاله المتلفزة والرقمية والمسموعة والإنترنت وأدوات الذكاء الصناعي ذريعة «ميكافيلية» لتبرير هيمنة الوضع الراهن، وسحق الطبقة العاملة، وتفكيك الرفاه الاجتماعي، وتحويل فكرة الدولة الحديثة الليبرالية إلى دولة تكتفي بوظيفة الحارس الليلي. (11)

وفي خضم الفهم الأنثروبولوجي والسياسي والسوسيولوجي للثقافة، هل يمكن اعتبار دور الإعلام في الشمال العالمي والجنوب العالمي مصدرا للتثقيف والوعي الفردي والجماعي والتربوي؟ أم هو ماكينة تقنية - بتعبير جورج أورويل - للسيطرة على وعي الجماهير وأدلجة فكر الجماهير التي تتلقى الخبر وتعيد إنتاجه وتحويله إلى مجتمع التلقي بما يتناسب مع جهاز الدولة الأيديولوجي كما اصطلح عليه ألتوسر؟ هل تغطية الإسلام - بتعبير إدوارد سعيد - هي شكل من أشكال صناعة الإعلام الأنثروبولوجي والإثنوغرافي حتى بدت لنا الثورة الإسلامية في زمن الخميني ثورة مضادة للحادثة الغربية من المنظور الأوروبي المركزي؟ (12) طلال وبدت لبعض الجماهير محاصرة السفارة الأمريكية من قبل بعض الجماهير الغربية رمزا أنثروبولوجيا لمناهضة



تكمّن إشكالية الثقافة بوصفها مفهوما غربيا نشأ في ظلال عصور الاستعمار والإمبريالية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر التي تصنعها وتشكلها وتشرعنها مؤسسات الدولة القومية الحديثة من خلال ديناميكات السلطة والديمقراطية والليبرالية والعلمانية ودولة الرفاه والسيادة وسلطة الإعلام

يونوبيا الحضارة الغربية بوصفها مهد الديمقراطية، وموطن حقوق الإنسان، ومشرفة سياسات التدخل العالمية باسم ما يُطلق عليه صامويل هنتغتون «صراع الحضارات». (9) ولكن ما علاقة كل هذا بأنثروبولوجيا الإعلام في خضم صيرورة تمثيل الغرب للعرب والمسلمين، بل وتمثيل العرب لأنفسهم في نفس السياق؟

سياسات التدخل الأمريكية في شؤون الشرق الأوسط؟ كيف تمت تغطية المظاهرات المضادة لحرب فيتنام في ستينات القرن الماضي مثلاً؟ يمكن لنا معاينة الإعلام الغربي ومراجعة تغطيته للربيع العربي بسهولة، وذلك من خلال تبنيه مقولات رسمية كثيرة تعبر عن الدعاية الأمريكية الرسمية، بل وتطلعنا على ما كان يحدث في المطبخ السياسي الأمريكي والخريطة الجديدة للوطن العربي. طبعاً هذا لا يتناقض مع وجود تطلعات أصيلة للشارع العربي في معركته الوجودية مع الخبز والكرامة والمساواة والعولمة وسياسات التدخل والإفقار، وما يسميه ديفيد هارفي «تناقضات الرأسمالية» التدميرية. (13) والاحتكار الاقتصادي لموارد البلدان العربية ناهيك عن سقوط التعليم العالمي في فخ الليبرالية الجديدة.

سرديات إعلامية مضادة للثقافة الغربية المركزية

إن المتابع لسرديات الصحفي روبرت فيسك في تغطيته للحرب في أفغانستان والعراق والحرب العراقية الإيرانية والحرب الأهلية في لبنان والثورة في سوريا وغيرها من الأحداث، يدرك تماماً أن حربه ضد ما يسميه «صحفيي الفنادق» كانت شكلاً أنثروبولوجياً وإثنوغرافياً صارخاً في ميدان الإعلام المعاصر. لنا أن نتخيل قدرة فيسك الإثنوغرافية المذهلة في سرد تفاصيل النساء العراقيات وشعوب أفغانستان وإيران ولبنان وأطفال فلسطين بعيداً عن الإملاءات الاستشراقية المبسطة. الأمر ذاته ينسحب على الصحفي كريس هيدجيس وتغطيته الإعلامية الأنثروبولوجية لكثير من أطفال ونساء فلسطين، وتغطيته لتفاصيل الإبادة الجماعية الحاصلة

اليوم في غزة، وبلاغته المدهشة في تصوير شعائر الفلسطينيين، وعاداتهم وطموحاتهم ومشاعرهم في خان يونس والشجاعة ورفح. وفي السياق نفسه، يطل علينا الصحفي جو ساكو في إهاب أنثروبولوجي وإثنوغرافي رفيع وهو يسرد هوامش غزة من خلال رسوم كرتونية عبقرية مشفوعة بسرد أدبي متخفف من النبرة الصحفية المحايدة. يرسم جو ساكو صورة واقعية وأنثروبولوجية مهولة عن تفاصيل غزة والمكون الاجتماعي والسياسي والجغرافي والوجداني في سياق الاحتلال الإسرائيلي، ويتبين لنا ذلك في قدرة ساكو على الدمج بين البصري والمحكمي، وبين المحكمي والسرد. وتتجلى هذه التقنيات الصحفية والملكة الأنثروبولوجية في كتاب ساكو «فلسطين» الذي يتكئ على أسلوب الروبورتاج، والذي يصوره إدوارد سعيد في مقدمة الكتاب ببراعة:

لقد شكلت الحروب الثقافية في أمريكا وبريطانيا وأوروبا خصوصاً بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، انعطافة مهمة في تاريخ وصيرورة أنثروبولوجيا الإعلام والإعلام الجماهيري بصورة عامة في بدايات الثمانينات، ومطلع التسعينات من القرن العشرين وصولاً إلى الثورة المعلوماتية في القرن الواحد والعشرين وانتهاء بحقبة ما بعد أحداث سبتمبر/ أيلول وحتى النزعة الترامبية الشمولية في يومنا الراهن.

تبدو لنا صورة المدينة في غزة مشوهة على يد آلة الاستعمار الاستيطاني، وتبدو طقوس أهل غزة تشبه السرد المتقطع، تحديق في جملة المبتدأ وتفتش عن الخبر، فلا تدركه إلا في صورة طفل معتقل، أو امرأة تنتظر زوجها المقتول على يد الجنود الإسرائيليين، ثم ندرك لاحقاً أن العزاء والرثاء من المحرمات في مدينة غزة. لا يكتفي قلم ساكو برسم التراجم الفلسطينية، وتفاصيل سجون الاحتلال، وطقوس الزواج، ومفارقة العيش في أكبر سجن في العالم، بل نحدق في روح المدينة المرهقة، وهي تقاوم كل تفاصيل حظر التجول، والأبارتايد، والحصار الاقتصادي والوجودي والسردى ويكأن الأنثروبولوجية الإعلامية في ملة واعتقاد جو ساكو هي الدال والمدلول، وهي المسرح الميلودرامي الذي يلتحم فيه السياسي بالجمالي والفردى بالجمعي والوجداني بالجغرافي. هنا تصبح الصحافة منصة لإشهار الحق في وجه التوحش الاستعماري. (14)

ولو أردنا تبسيط الثقافة في المخيال الجمعي العالمي خصوصاً من الزاوية الاستشراقية والأنثروبولوجية لقلنا إن شخصية بروسبيرو حاكم ميلان في مسرحية العاصفة تشكل مصدراً خصباً للثقافة الغربية والإعلام الغربي؛ فهي شخصية مثقفة ومتعلمة ومحتشدة بمصادر النهضة الأوروبية والنزعة المسيحية الإنجليكانية والقوة والقلق والهيمنة والنزعة الاستعمارية والنظرة الدونية للثقافات الأخرى، وكالبيان المسخ هو رمز الطبيعة البكر أو الشعوب الأخرى الهامشية التي تشكل نقيض الحضارة؛ إذ يرى الرجل الأبيض في نفسه مهمة حضارية كونية وهي وظيفة السيد تجاه عبيده التابعين، وهذه الوظيفة إعلامية وتعليمية وأنثروبولوجية.



من منظور الدراسات الثقافية: تأويل الخبر وتفسيره هو جزء عضوي من عالم الصحافة وانتشار الخبر وإنتاجه وصناعاته عبر الصحف والعالم الرقمي، وكيفية تلقي الجمهور لهذا الخبر وتشكلات الوعي الجماهيري، وصناعة الكلمات وتشكيل الخطاب (شترستوك).

”المراجع

- (1) Unberg, Natalie M., and Elyane Zorn. Digital Ethnography: Anthropology, Narrative, and New Media. Austin: University of Texas Press, 2013.
- (2) Awan, Imran. "Islamophobia on Social Media: A Qualitative Analysis of Facebook's Walls of Hate." International Journal of Cyber Criminology 10, no. 1 (2016).
- (3) سعيد، إدوارد. ترجمة محمد عناني. تغطية الإسلام. القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2005.
- (4) Said, Edward. Orientalism. London: Penguin Classics, 2003.
- (5) شاهين، جاك. ترجمة خيرية البشلاوي. الصورة الشريرة للعرب في السينما الأمريكية. القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2013.
- (5) Al-Mousawi, Nahrain. "Could 2016 Mark a Breakthrough for Arab Films at the Oscars?" Middle East Eye. 2016. <https://www.imdb.com/title/tt3170902/>.
- (6) Alexander, Kinglake. Eothen. London: J.M. Dent and Sons, 1908, 106-107.
- (7) Ginsburg, Faye D., Lila Abu-Lughod, and Brian Larkin, eds. Media Worlds: Anthropology on New Terrain. Berkeley: University of California Press, 2002.
- (8) Mazlish, Bruce. Civilization and Its Contents. Stanford: Stanford University Press, 2004.
- (9) كوبر، آدم. ترجمة تراجي فتحي. الثقافة: التفسير الأنثروبولوجي. الكويت: عالم المعرفة، 2008.
- (9) Harvey, David. Seventeen Contradictions and the End of Capitalism Oxford: Oxford University Press, 2014, 89.
- (10) Asad, Talal. "The Idea of an Anthropology of Islam." Cultural Anthropology 17, no. 2 (2009): 1-30.
- (11) Lincoln: University of Nebraska Press.
- (12) David. Seventeen Contradictions and the End of Capitalism.
- (13) Sacco, Joe. Palestine. London: Vintage Publishing, 2003.
- (14) Sacco, Palestine.



المجتمع العربي والصحافة الاستقصائية.. جدلية الثقافة والسلطة والمهنة

مصعب شوابكة

تشكل هذه القراءة في أشكال الضغوط الاجتماعية وتأثيرها على ممارسة الصحافة بشكل عام والعمل الاستقصائي بشكل خاص، امتداداً لمقال سابق للزميل مصعب شوابكة، المنتج الاستقصائي بقناة الجزيرة، حول أسباب تعثر الصحافة الاستقصائية في العالم العربي. البنى الاجتماعية المحافظة، سلطة الجمهور، الدين والمعتقدات، النساء والأطفال، القبيلة والعشيرة والرقابة الذاتية تحولت إلى قيود شديدة تقيد حرية الصحفيين.

عندما تلقت صحيفة بوسطن غلوب الأمريكية أول بلاغ عن تعرض طفل لانتهاك جنسي داخل إحدى الكنائس الكاثوليكية تجاهلت الصحيفة القصة في البداية، رغم تكرار البلاغات من ضحايا آخرين. كان الدافع وراء التجاهل احترام مكانة الكنيسة ودورها في المجتمع، وربما خشية من الاصطدام مع مجتمع محافظ لا يزال يتمتع فيه رجال الدين بنفوذ واسع، مع أنهم في بلد يوصف بالليبرالي. وعلى الرغم من محاولات رؤساء التحرير طمس التحقيقات التي كشفها فريق الصحافة الاستقصائية (سبوت لايت) (1) إلا أن الفضيحة انفجرت عام 2003 لتكشف عن دور المجتمع -حتى في أكثر البيئات انفتاحاً- في فرض سلطته على الصحافة والتأثير على أدائها وممارساتها، ودور الصحافة الاستقصائية في التأثير في المجتمع واتجاهاته، وهو ما يمنحنا فرصة للمقارنة مع ما يحدث في مجتمعاتنا العربية حيث تبدو هذه الضغوط على الصحافة وبالأخص الاستقصائية منها أكثر وضوحاً وأثقل وطأة.

في المنطقة العربية تتسم المجتمعات بتنوعها العرقي والديني والطبقي والأيدولوجي، يضاف إليها نفوذ القبيلة الممتدة عبر الحدود، والعشيرة والأسرة وسلطة العادات والتقاليد، وهنا تتعاظم سلطة المجتمع على العمل الصحفي، وتزداد معها حساسية تناول قضاياها، وتتشابك كلها في سياق مع العمل الاستقصائي تؤثر فيه ويتأثر بها.

إن الصحفي الاستقصائي العربي - في نهاية المطاف - جزء من هذا النسيج الاجتماعي الكثيف والمعقد، يحمل هويته الثقافية والاجتماعية التي تتسرب إلى ممارساته المهنية بوعي أو دون وعي؛ لأن الصحافة

الاستقصائية ليست مجرد تطبيق جامد لمعايير مهنية وأخلاقية، بل هي فعل اجتماعي حي يتحرك الصحفي خلاله في مساحة معقدة تحكمها سلطات أربع تتداخل وتتضاد معاً وهي: سلطة المجتمع وسلطة المعايير المهنية وسلطة الهوية الثقافية التي يحملها الصحفي نفسه والسلطة السياسية والأمنية. وتفرض هذه السلطات بدورها ضغوطاً شديدة تكاد تتحول إلى معايير قسرية بديلة، وهو ما يجعل الصحفي الاستقصائي في العالم العربي يسير «فوق حد السكين» بتعبير يسري فودة، محاولاً أن يوازن بين هذا الكم الهائل من السلطات المتشابكة.

توجد فجوات كبيرة بين تلك السلطات؛ بين أن يكون الصحفي الاستقصائي صوتاً للناس وللمجتمع أو انعكاساً لثقافته وضميره، وأن يكون ساعياً لكشف الحقيقة؛ فالمجتمع ليس دائماً على حق، والسلطة ليست دائماً على باطل، وهنا تبرز أهمية وعي الصحفي الاستقصائي بتلك الفجوة، وكلما كان مرتفعاً ازدادت قدرته على ممارسة دوره الرقابي الفعال دون الوقوع في فخ التبرير للمجتمع أو لبعض فئاته أو التجييش ضده، ومحاولة تجنب ابتلاع السلطة أو المجتمع له، وعدم الوقوع في إكراهات أي منهما.

النظام والمجتمع: زواج معقد

في البيئات المعقدة حيث احتلال الأرض وقتل الإنسان ومقاومة العدوان والحروب والدماء والصراعات وسيادة الدكتاتوريات والكوارث والهجرات تبرز سياقات جدلية مشحونة بالاستقطاب السياسي الحاد والأزمات الاجتماعية العميقة،

ويتوقع المجتمع من الصحفي الاستقصائي أن يصير لسان حاله ومدافعاً عن قضاياه، لكن المجتمع ليس كتلة واحدة كما هو معروف بل مجتمعات صغيرة متباينة ترى الأمور بمنظير شتى، وهو ما قد يفرض على الصحفي الاستقصائي نوعاً من التورط الرمزي في الصراع؛ فيصنف بسهولة بين نقضين: إما مدافع عن الوطن أو خائن له، موال أو معارض، فيغيب تقدير الموضوعية لصالح الأحكام المسبقة والانفعالات الاجتماعية، ومع تعاظم الضغط المجتمعي على الصحفي يوضع في خانة الاختيار الحرج بين «الجنوح إلى المجتمع» و«النجاة المهنية».

في المنطقة العربية تتسم المجتمعات بتنوعها العرقي والديني والطبقي والأيدولوجي، يضاف إليها نفوذ القبيلة الممتدة عبر الحدود، والعشيرة والأسرة وسلطة العادات والتقاليد، وهنا تتعاظم سلطة المجتمع على العمل الصحفي، وتزداد معها حساسية تناول قضاياها، وتتشابك كلها في سياق مع العمل الاستقصائي تؤثر فيه ويتأثر بها.

الأصل أن يكون الصحفي الاستقصائي موضوعياً دائماً؛ فهو ليس محايداً تماماً ولا ناشطاً بالكامل، إنه وسيط أخلاقي ومعرفي يسعى لكشف الحقيقة كما توصل إليها من

مصادرها الأولية الموثوقة مع وعي بأثرها عليه وعلى مؤسسته وعلى المجتمع أيضًا. هذا التوازن لا يتأتى إلا بالإدراك التام والمراجعة النقدية لموقع الصحافة الاستقصائية ودورها ووظيفتها في الظروف الحرجة بواسطة مؤسسات رصينة تحمي ما يسمى «الاستقصاء» من الانزلاق نحو الشعبوية أو ما يطلبه الجمهور، وذلك عبر تغذية الجوانب العاطفية والنفسية والقومية على حساب الواقع.

في تونس مثلاً، شهدت البلاد فترات من الاستقطاب الأيديولوجي الحاد بين الإسلاميين واليساريين وغيرهم، خاصة قبل وبعد إعلان 25 يوليو/تموز 2021 الذي مثل تحولاً سياسياً وُصف بأنه انقلاب دستوري. (2) يشرح الصحفي الاستقصائي ومدير موقع الكتبية وليد الماجري كيف يتغير أثر الفاعل الاجتماعي على الصحفي بحسب نموذج الحكم القائم؛ فعندما يسود مناخ ديمقراطي يحترم التعددية وحرية الصحافة تتحول التحقيقات الاستقصائية إلى مصدر فخر وتقدير للصحفي وأسرته؛ إذ يغيب عنهم الخوف من العقاب أو التهديد، أما في النظم السلطوية فتصبح تُهم التخوين و«التكفير» والملاحقات الأمنية والقضائية هي العنوان الأبرز الذي يلاحق الصحفي الاستقصائي وعائلته ويهدد سلامتهما ووجودهما، وربما بمباركة اجتماعية أو بتواطؤ المجتمع وتقاعسه.

يقول الماجري لمجلة الصحافة: «هناك حالة وصم حقيقية وحالة عار اجتماعي في أن يكون ابنك سجيناً أو ملاحقاً أمنياً أو قضائياً» ويروي قصة شخصية تعكس هذا العبء الاجتماعي حين حُكم عليه غيابياً لمدة عام بسبب عمله صحفياً؛ إذ اتهم بـ«إتيان أمر موحش ضد رئيس الجمهورية». (3)

يتحدث الماجري عن والدته التي شعرت بالخل في الحي حين كانت تسمع همسات الجارات وهنّ يقلن: «ابنها في السجن... ابنها مسجون» رغم أنه لم يكن كذلك، ويضيف أن والدته كانت تعود إلى المنزل باكية طالبة منه أن يزورها علناً كعادته، وأن يترك أكياس المشتريات أمام باب البيت حتى يراه أهل الحي ويعرفوا أنه ما زال حراً طليقاً وليس خلف القضبان كما يشاع.

المجتمع ليس دائماً على حق، والسلطة ليست دائماً على باطل، وهنا تبرز أهمية وعي الصحفي الاستقصائي بتلك الفجوة، وكلما كان مرتفعاً ازدادت قدرته على ممارسة دوره الرقابي الفعال دون الوقوع في فخ التبرير للمجتمع أو لبعض فئاته أو التجبيش ضده، ومحاولة تجنب ابتلاع السلطة أو المجتمع له، وعدم الوقوع في إكراهات أي منهما.

وفي خضم الحرب في سوريا، عمل الصحفي الاستقصائي مختار الإبراهيم عام 2016 من دمشق على كشف فساد توزيع المساعدات الدولية في المناطق المحاصرة؛ حيث طالت الاتهامات الجيش والمخابرات بالاستيلاء على جزء كبير من تلك المساعدات، غير أن المفاجأة جاءت من حيث لم يتوقع؛ إذ تعرض لضغوط شديدة من الجمعيات المشرفة على التوزيع ومن الأهالي المستفيدين أيضاً

الذين حذروه من أن تحقيقه قد يتسبب في قطع المساعدات عنهم بالكامل؛ وذلك بأن توقف المنظمات الدولية دعمها بعد انكشاف أن قسماً كبيراً من المساعدات ينتهي إلى يد الأجهزة الأمنية والعسكرية التي هددته لاحقاً في حال نشر التحقيق، فأثرت المؤسسة التي يعمل الإبراهيم لصالحها سلامته، ولم ير تحقيقه النور.

يعلق مختار الإبراهيم على تلك اللحظة قائلاً لمجلة الصحافة: «هذا يضع الصحفي أمام تحدٍ كبير... أنت بتشوف عائلة معتمدة على جزء يسير من المساعدات التي تصلها، وما عندها أي وسيلة ثانية للعيش» في حال قطعت هذه المساعدات بسبب التحقيق.

سلطة الجمهور: الفيل الكبير

رغم ما تواجهه الصحافة الاستقصائية من ضغوط سياسية وأمنية إلا أن سلطة الجمهور تبقى أحد أثقل الفيلة في الغرفة؛ فهي سلطة غير مرئية لكنها حاضرة بقوة وقادرة على دعم الصحافة أو إسكانها، وعلى تحويل التحقيق إلى أداة للمساءلة أو وقوداً للتحريض. في هذا السياق، توضح تجارب ميدانية كيف يمكن للجمهور أن يصبح خصماً غير متوقع في معركة كشف الحقيقة.

تروي الصحفية اللبنانية حنان حمدان لمجلة الصحافة تجربتها أثناء إعداد مادة حول واقع أصحاب المؤسسات في القرى الحدودية الجنوبية بعد الحرب الإسرائيلية الأخيرة على لبنان، ورغم أن التحقيق كان ذا صبغة اقتصادية واجتماعية بحتة، واجهت ضغوطاً اجتماعية وسياسية كبيرة، ليس



تزداد التحديات بصعوبة الوصول إلى المعلومات والأدلة، إضافة إلى المعضلات الأخلاقية المرتبطة بسلامة الضحايا، إلى جانب الضغوط الاجتماعية والثقافية التي تفرض على الضحايا الصمت خوفاً من الفضيحة أو العار الاجتماعي أو النبذ المجتمعي (شترستوك).

ارتباطه بالسلطة، لكن الغالبية كانت مدفوعة بالخوف على «ذاكرة وطنية جميلة» خشية أن يُفسر الكشف الصحفي على أنه طعنة في كبرياء السوريين، ويتابع قائلاً: «بعد النشر وُصف فريق التحقيق بالعمالة والتآمر على الكرة السورية، وبلغت الضغوط حدًا جعلني أتمنى لو أنه لم يُنشر».

تكشف هذه التجارب أن سلطة الجمهور ليست دائماً رافعة للحقيقة، بل قد تصبح أداة ضغط تدفع الصحفي إلى الرقابة الذاتية أو التراجع عن النشر، خاصة عندما تتقاطع الحقائق مع الرموز الاجتماعية أو الذكريات العاطفية. في

القدم تحت سن العشرين بفوارق تصل إلى خمس أو ست سنوات، (4) وهي ممارسة استمرت 15 عامًا في ظل حكم نظام الأسد، ويصف الصحفي أحمد حاج حمدو أحد معدي التحقيق بأن التحقيق في الأمر «كان بمثابة مسّ للمقدسات» موضحًا لمجلة الصحافة أن الجمهور الرياضي - خاصة مشجعي كرة القدم - يتعامل بعاطفة جارفة مع الإنجازات الرياضية، وهو ما جعل التحقيق فيها محفوفًا بالضغوط قبل النشر وبعده.

ويضيف حمدو أن معظم من تواصل معهم حاولوا إقناعه بعدم النشر؛ بعضهم يحمي الفساد بحكم

بسبب المحتوى بل بسبب الهوية السياسية للجريدة التي تعمل بها، التي يرفضها جزء كبير من سكان تلك المناطق.

توضح حمدان أنها وجدت صعوبة بالغة في إقناع الناس بالتحديث إليها، رغم أن هدفها كان تسليط الضوء على معاناتهم بعيدًا عن السياسة، وتقول في هذا الصدد: «كنت متفهمة تمامًا لمخاوفهم، خاصة أنني أنتمي إلى قرية حدودية وأدرك حساسية الموقف... تقبلت الرفض بصبر، وحرصت على توضيح نيتي وهدف التحقيق مرارًا». وفي سوريا، كشف تحقيق استقصائي عن تزييف أعمار لاعبي منتخب كرة

مثل هذه السياقات، يتحول الجمهور من ضحية للفساد أو الاستبداد إلى حارس للخطاب السائد، ويخشى أن تهتز الأساطير الوطنية أو السردية المجتمعية. ولذلك يحتاج الصحفي الاستقصائي إلى إدراك مزدوج؛ الأول إدراكه بحق الناس في المعرفة، والثاني بخطورة استعداد الجماهير، وذلك دون أن يقع في فخ سلطته، حيث التواطؤ أو التلميق.

القبليّة: درع وعبء

في المجتمعات ذات البنى القبلية والعشائرية - وهي متعددة في المنطقة العربية - لا يُنظر إلى الصحافة باعتبارها فقط وظيفة مهنية مستقلة بل امتداداً للانتماءات الاجتماعية والموقع القبلي أو العائلي للصحفي. يسبب هذا السياق تحديات مضاعفة على الصحافة الاستقصائية؛ لأن كشف الفساد أو المساءلة قد تتقاطع مع مصالح أو رموز عشائرية، وهو ما يُعرّض الصحفي لحصار اجتماعي يفوق في تأثيره أحياناً الضغوط السياسية.

في عام 2011، صُدم الوسط الصحفي الأردني باقتحام ستة أفراد من عشيرة شخصية عسكرية سابقة مكتب الصحفي جهاد أبو بيدر والاعتداء عليه بالضرب؛ (5) بسبب نشره مقالاً كشف فيه شبهات استغلال تلك الشخصية لمنصبها العام، ولم يكتف المهاجمون بذلك، بل حطموها أجهزة الحاسوب وهددوا أبو بيدر بالتصفية الجسدية رمياً بالرصاص إن تجرأ على نشر أي خبر عنها مرة أخرى.

وفي ظل ضعف الأحزاب والمجتمع المدني والثقافة المدنية وسيادة القانون، فإن الرقابة لا تنحصر

ممارستها في مؤسسات الدولة، بل تُمارس أيضاً عبر منظومة من «الضبط الاجتماعي غير الرسمي»؛ حيث يُتوقع من الصحفي ألا يفصح قريبه أو ابن عشيرته أو شخصية نافذة ذات بعد قبلي، وأن يراعي «الهيبة» العشائرية للقبائل الأكثر حضوراً وقوة من عشيرته. يصعب على الصحفي ضمن هذه البيئة ممارسة دوره في نقد الممارسات ذات الصبغة العشائرية الحساسة حتى وإن كانت الحقيقة تتطلب خلاف ذلك. كما يمكن أن يُنظر إلى التحقيق الاستقصائي - أحياناً - بوصفه خيانة لهوية الانتماء، أو يُساء تفسيره باعتباره موقفاً شخصياً لا كشفاً موضوعياً، أو استهدافاً لمكون عشائري منافس؛ فعلى سبيل المثال أُصدّرت إحدى العشائر الأردنية بياناً صحفياً استنكرت فيه تصريحات لأحد المذيعين في برنامج إذاعي صباحي - اعتبرتها إساءة للعشائر الأردنية - وطالبت بتقديم اعتذار علني. (6) ولم يتوقف الأمر عند البيان، بل بادر بعض أفراد العشيرة إلى رفع دعوى قضائية ضد المذيع أمام المحاكم.

أما في حالات النزاع أو الخلافات بين القبائل فيجد الصحفيون أنفسهم أمام مأزق معقد؛ إذ إنهم جزء من هذه البنية الاجتماعية، وأي تغطية قد تُفسّر على أنها «انحياز لطرف ضد آخر» وهو ما يعرّضهم لفقدان الثقة أو حتى للنزاع الاجتماعي من بيئتهم نفسها. (7)

بالإضافة إلى ما سبق تؤثر الثقافة القبلية والعشائرية في البيئة الاجتماعية التي يعمل ضمنها الصحفي الاستقصائي، ولا تقتصر هذه الثقافة على منظومة القيم والتقاليد، بل تمتد لتؤسس لمنظومة نفوذ اجتماعي وسياسي واقتصادي ذات امتدادات داخل جسم الدولة والإعلام، وهو ما

يجعلها فاعلاً غير رسمي في توجيه العمل الصحفي وفرض «حدود غير مكتوبة» على ما يمكن أو لا يمكن كشفه.

ومن جهة أخرى، قد يشكّل الانتماء القبلي درع حماية للصحفي في البلدان التي لا تزال تعطي لهذا الفاعل الاجتماعي وزناً كبيراً؛ ففي بعض الحالات يمكن للعشيرة أن تردع محاولات استهداف الصحفي الذي ينتسب إليها من قبل السلطات السياسية أو الأمنية أو المكونات الاجتماعية الأخرى، ونلاحظ تتابع بيانات عشائرية لدعم وتأييد ومناصرة إعلاميين وصحفيين تعرضوا لمضايقات السلطة، (8) كما يوفر الانتماء القبلي لبعض الصحفيين غطاءً اجتماعياً يسهل عمله مستفيداً من شبكة العلاقات وصلات القرى الممتدة حتى داخل مؤسسات الدولة. (9)

سلطة الجمهور ليست دائماً رافعة للحقيقة، بل قد تصبح أداة ضغط تدفع الصحفي إلى الرقابة الذاتية أو التراجع عن النشر، خاصة عندما تتقاطع الحقائق مع الرموز الاجتماعية أو الذكريات العاطفية. في مثل هذه السياقات، يتحول الجمهور من ضحية للفساد أو الاستبداد إلى حارس للخطاب السائد، ويخشى أن تهتز الأساطير الوطنية أو السردية المجتمعية.

قضايا النساء والأطفال.. التعقيد الأكبر

في الوقت الذي صدرت فيه تقارير عن الأمم المتحدة تصف تدهورًا حادًا في ظروف احتجاز الرجال والنساء والأطفال الفلسطينيين في إسرائيل تصل إلى حد التعذيب الجنسي للنساء الفلسطينيات، (10) تعالت الكثير من الأصوات على منصات التواصل الاجتماعي محذرة من التعامل مع تلك الأخبار التي تخص الاعتداء الجنسي على النساء، (11) وهو ما حدث مع السيدة صاحبة التسجيل الصوتي الذي ذكر فيه مزاعم اغتصاب نساء في مستشفى الشفاء بغزة قام به جنود الاحتلال الإسرائيلي، فدفع ذلك شقيقها إلى القول بأن الرواية غير صحيحة وقيلت من

باب المبالغة، (12) وفي هذه الحالة يصبح من الصعب على الصحفي الاستقصائي أن يتحرى مثل هذه القضية - سواء بنفيها أو بإثباتها - دون أن يتعرض لضغوط اجتماعية في مفترق تاريخي وقومي وإنساني بالغ الخطورة.

تُعد قضايا العنف الجنسي ضد النساء والأطفال من أكثر الملفات حساسية وتعقيدًا؛ (13) إذ تقع غالبًا خلف أبواب مغلقة ويحيطها الصمت والخوف. ويتطلب توثيق هذه القضايا من الصحفي الاستقصائي جهدًا استثنائيًا لبناء الثقة مع الضحايا ودفعهم لاسترجاع تجارب مؤلمة، وهذا يجعل المهمة مرهقة نفسيًا للطرفين، وقد يتعرض الصحفي لصدمة ثانوية أو إرهاب عاطفي، وفي الوقت ذاته يواجه معضلة أخلاقية: كيف يكشف

الحقيقة دون أن يزيد من معاناة الضحية أو يعرضها للخطر؟ وما يزيد المهمة صعوبة تجاوز التغطية التقليدية للحدث العنيف بعيدًا عن جذوره وسياقه، وهنا تبرز مسؤولية الصحافة الاستقصائية في تجاوز هذا النمط السطحي، وتبني سرديات أكثر إنصافًا ووعيًا بأثر القصة على الضحايا والمجتمع، لتجنب الصدمة والوصمة. (14)

وتواجه الصحافة الاستقصائية مخاطر متزايدة عند تغطية قضايا المرأة والطفولة، أبرزها الانتقام والملاحقة؛ فقد وثقت لجنة حماية الصحفيين عدة حوادث (15) منها اعتقال صحفي صومالي عام 2013 واتهامه بـ«إهانة مؤسسات الدولة» و«نشر الأكاذيب» فقط لأنه أجرى مقابلة مع ضحية اغتصاب اتهمت جنودًا حكوميين بالجريمة، علمًا

يفرض المجتمع بتنوعاته المختلفة على الصحفي الاستقصائي نوعًا من التورط الرمزي في الصراع؛ فيصنف بسهولة بين نقيضين: إما مدافع عن الوطن أو خائن له، موال أو معارض، فيغيب تقدير الموضوعية لصالح الأحكام المسبقة والانفعالات الاجتماعية (شترستوك).

أنه لم يكن قد نشر التقرير بعد، بل إن الضحية نفسها تعرضت للاعتقال في محاولة لإسكاتها. (16)

وتزداد التحديات بصعوبة الوصول إلى المعلومات والأدلة، إضافة إلى المعضلات الأخلاقية المرتبطة بسلامة الضحايا، إلى جانب الضغوط الاجتماعية والثقافية التي تفرض على الضحايا الصمت خوفاً من الفضيحة أو العار الاجتماعي أو النبذ المجتمعي.

توضح الصحفية المغربية إيمان البلالي المتخصصة في قضايا الهجرة واللجوء أن تناول قضايا المهاجرين المفقودين في البحر كان ممكناً حين يتعلق الأمر بالرجال، لكنه يصبح بالغ الحساسية عندما يتعلق بالنساء. تقول لمجلة الصحافة: «وجدت نفسي مراراً أمام جدران صمت سميكة، ليس بسبب غياب المعلومات بل بسبب الخوف المتجذر اجتماعياً من الفضيحة والعار» وتوضح أن العمل على هذا الملف كان أشبه بالدخول إلى مناطق محرمة ثقافياً؛ حيث يُنظر إلى الحديث عن اختفاء فتاة في البحر أو احتجازها في مراكز غير قانونية على أنه وصمة تلاحق العائلة لا مأساة إنسانية تستحق الكشف والعدالة.

تروي البلالي كيف أثر فيها تتبع قصص شباب وشابات مغاربة فُقدوا أثناء محاولتهم عبور البحر نحو أوروبا؛ حيث قوبلت محاولاتها للتواصل مع عائلات الفتيات برفض قاطع، مفسرة هذا الرفض بأنه ليس بسبب فقدان الثقة بالصحافة، بل خوفاً من أن يتحول الحديث إلى «تشويه لسمعة العائلة» أمام المجتمع. وتنقل البلالي عن والد إحدى الفتيات المفقودات قوله بلهجة حاسمة: «الناس سيتحدثون عنا... نحن

نريد أن ننسى»، لم يكن النسيان بالنسبة له تعبيراً عن الحزن أو العجز، بل «خطة نجاة اجتماعية» لحماية سمعة العائلة من الوصمة.

تؤثر الثقافة القبلية والعشائرية في البيئة الاجتماعية التي يعمل ضمنها الصحفي الاستقصائي، ولا تقتصر هذه الثقافة على منظومة القيم والتقاليد، بل تمتد لتؤسس لمنظومة نفوذ اجتماعي وسياسي واقتصادي ذات امتدادات داخل جسم الدولة والإعلام، وهو ما يجعلها فاعلاً غير رسمي في توجيه العمل الصحفي وفرض «حدود غير مكتوبة» على ما يمكن أو لا يمكن كشفه.

الدين والأقليات: حقل الألغام

الدين والأقليات ليسا ميداناً عصياً على التحقيق فقط، بل جبهة مقاومة صامتة ضد الصحافة الاستقصائية في المنطقة العربية، والتحدي الأكبر ليس في كشف الحقيقة حين يتعلق الأمر بهما، بل في إنتاج خطاب مهني قادر على تفكيك التابو دون إشعال النزاع. ما زلنا نذكر كيف ساهم الإعلام في إذكاء حرب طائفية في العراق، وهذا يتطلب من الصحفي الاستقصائي أن يكون ليس محققاً

فقط، بل أيضاً مفاوضاً ثقافياً (17) يتحرك بين الحقول الأيديولوجية بحذر، دون أن يفقد بوصلته الأخلاقية وشرفه المهني.

ما زالت قضايا الدين والأقليات تشكل واحدة من أعقد ساحات العمل الصحفي العربي، حيث تتداخل الهويات والعقائد والتاريخ والسلطة والخوف من شيطنة الجماعات أو تعزيز الصور النمطية، وتجد الصحافة الاستقصائية نفسها أمام معضلة مزدوجة: كيف تكشف الحقيقة دون أن تغذي خطاب الكراهية أو تعيد إنتاج الانقسامات؟ كما أنها حقول ملغمة لما تحمله من رمزية عميقة تتجاوز الحقائق لتلامس مشاعر الجماعات وهوياتها، وأي تناول غير دقيق قد يشعل نزاعات أو يؤدي لملاحقات قانونية وتحرير مجتمعي يقود إلى الاحتراب الأهلي خاصة في بيئات الاستقطاب الحاد كما في منطقة، فقد تُستخدم هذه القضايا لخدمة أجندات سياسية كما يحصل الآن من استخدام دولة الاحتلال خطاب المكونات في سوريا، بالإضافة إلى ما يحيط هذه القضايا من محرمات وخطوط حمراء تجعل الاقتراب منها مخاطرة قد تكلف الصحفي سمعته أو سلامته، ولا ننسى أن الدولة العربية ما زالت تحتكر الحقل الديني تنظيمياً وتمويلًا ورقابة، وتستخدمه لتعزيز شرعيتها ومشروعيتها للحكم.

الرقابة الذاتية: القاتل الصامت

على عكس الرقابة الرسمية التي تمارسها السلطات في منطقة العربية بشكل مباشر عبر ترسانة القوانين وأجهزة الأمن والقضاء، فإن الرقابة الذاتية تبدو نتيجة متوقعة

لتراكم الضغوط السياسية والأمنية والاجتماعية والثقافية التي تحاصر الصحفي الاستقصائي في البيئات المغلقة أو المتوترة سياسياً ودينياً.

إن الصحفي العربي لا يمارس الرقابة على نفسه من فراغ، بل تُفرض عليه تدريجياً كآلية دفاعية ذاتية لمواجهة شبكة معقدة من التحديات والضغوط، تبدأ من الخوف على حياته وسلامته الجسدية والقانونية والرقمية، وتمتد إلى

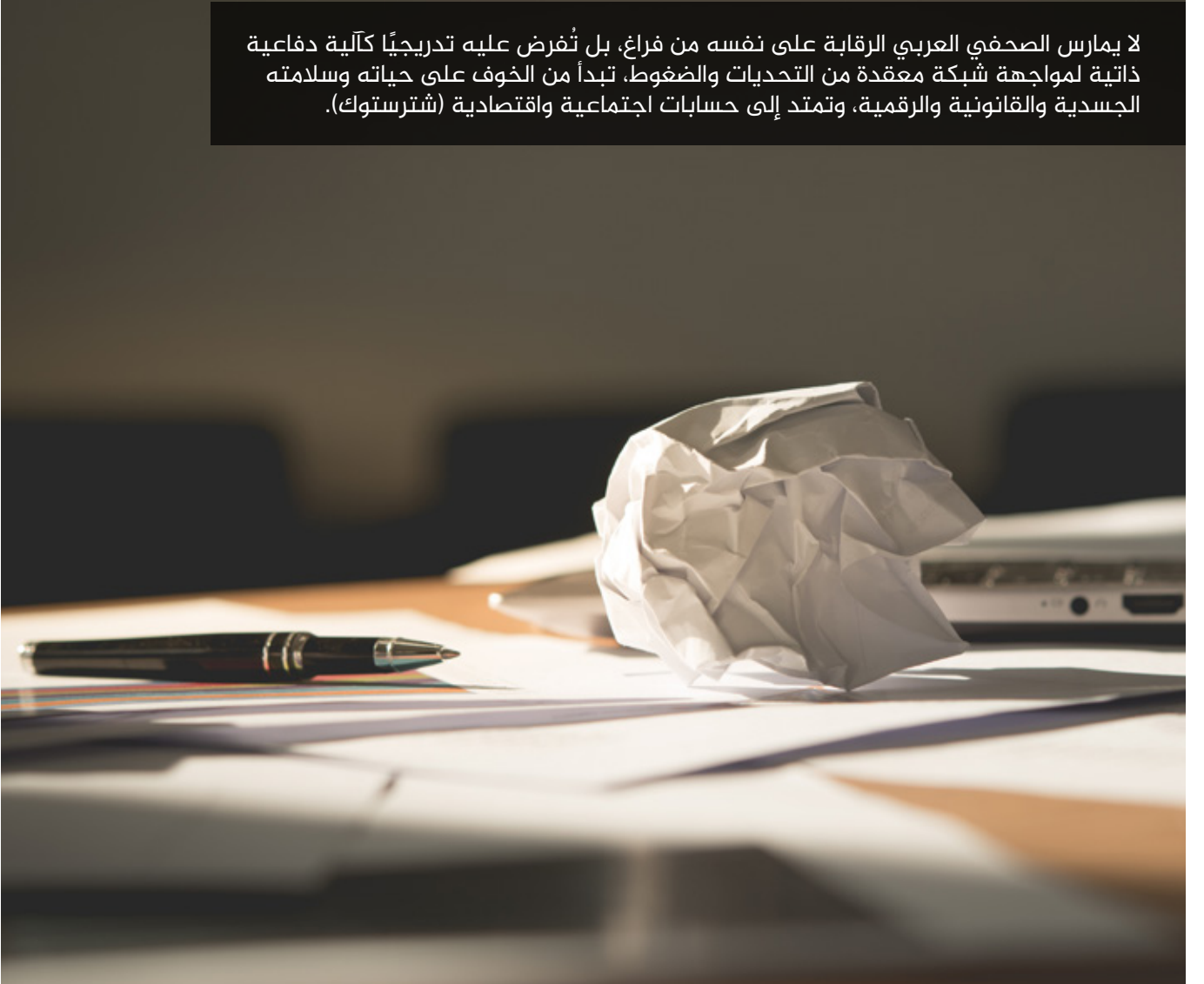
حسابات اجتماعية واقتصادية تجعله يشعر بأن كل كلمة يكتبها قد تكون لها كلفة باهظة.

وتعد الرقابة الذاتية والضغوط المجتمعية من أخطر أشكال القمع الخفي للصحافة الاستقصائية؛ فعندما يخشى الصحفي العزل أو التخوين داخل مجتمعه، يبدأ بممارسة رقابة داخلية تدفعه إلى تجنب بعض القضايا أو تفريغها من مضمونها بلغة مراوغة لا تلامس

جوهر الحقيقة.

تُنتج البنية الاجتماعية في المنطقة العربية رقابة ذاتية مضاعفة، تجعل الصحفي لا يخشى الدولة فقط، بل يخشى قبيلته أو طائفته أو عائلته أو مجتمعه المباشر، (18) وهنا يترنح الصحفي بين المهنية والولاء المجتمعي، وهو ما قد يؤدي إلى الإحجام عن تغطية قضايا حساسة، أو صياغتها بلغة مبهم، أو تحويل الاتهام إلى أطراف هامشية.

لا يمارس الصحفي العربي الرقابة على نفسه من فراغ، بل تُفرض عليه تدريجياً كآلية دفاعية ذاتية لمواجهة شبكة معقدة من التحديات والضغوط، تبدأ من الخوف على حياته وسلامته الجسدية والقانونية والرقمية، وتمتد إلى حسابات اجتماعية واقتصادية (شترستوك).



أو التواطؤ مع الصمت الجماعي، والنتيجة واضحة: وهي إضعاف قدرة الصحافة الاستقصائية على تفكيك شبكات النفوذ المحلية التي تستمد قوتها من تحالف السلطة والنخبة الاجتماعية والمال.

تؤكد الصحفية الاستقصائية الأردنية حنان خندقي أن هذه الضغوط حاضرة في تجربتها المهنية والشخصية، فهي تصنف التحديات التي تواجهها إلى عائلية ومهنية، مشيرة إلى أن زوجها هو الأقرب لما تعمل عليه من تحقيقات، وكثيراً ما يحذرها من الملفات الحساسة قائلاً: «هذا الموضوع بجيب وجع راس». ومع ذلك، تؤكد حنان قدرتها على تجاوز المخاوف والمضي قدماً في عملها.

أما في بيئة العمل، فتوضح خندقي أنها فرضت على نفسها عزلة اجتماعية لحماية سرية التحقيقات وخصوصية المصادر في بيئة عمل تتميز بالترابط الاجتماعي، لكنها تعترف بوجود رقابة ذاتية ترافقها أحياناً، خصوصاً في القضايا الجدلية مثل الدين والعشائر، فتقول: «في قضايا معينة أحس إنها كثير جدلية، أو ممكن تفتح أبواب للمشاكل... خصوصاً في الدين والعشائر... فلا أفضل الخوض بها» أو التقصي حولها.

الرقابة الذاتية ليست ضعفاً شخصياً بقدر ما هي نتاج تراكمات سياسية وثقافية واجتماعية (19) تقيد الصحفي وتكبح حريته، والتحرر منها لا يتحقق بالتدريب المهني وحده، بل يتطلب إعادة صياغة العلاقات بين الصحافة والسلطة والمجتمع والمؤسسات الإعلامية والنقابات، بل حتى بين الصحفيين الاستقصائيين أنفسهم. عندما يُنظر إلى الصحفي

بصفته شريكاً في كشف الحقيقة وخادماً للصالح العام وليس مختللاً للمشاكل أو مشوهاً للسمعة، عندها يمكن للصحافة الاستقصائية العربية أن تنهض بدورها الحقيقي في الرقابة والمساءلة.

ما زالت قضايا الدين والأقليات تشكل واحدة من أعقد ساحات العمل الصحفي العربي، حيث تتداخل الهويات والعقائد والتاريخ والسلطة والخوف من شيطنة الجماعات أو تعزيز الصور النمطية، وتجد الصحافة الاستقصائية نفسها أمام معضلة مزدوجة: كيف تكشف الحقيقة دون أن تغذي خطاب الكراهية أو تعيد إنتاج الانقسامات؟

حليف محتمل للصحافة الاستقصائية؟

الإنسان، ويطرق العدو الأبواب ويكسر الحدود العربية بطائراته النفاثة ويرتكب الإبادة الجماعية في قلب الأمة وسط صمت مطبق، يجد الناس أنفسهم أمام خيار وحيد: هو كسر جدار الصمت، ويتحول الجمهور من مجرد «متلقٍ» إلى حليف موضوعي يدفع نحو التحقيق والمساءلة ويطالب بهما. عندئذ تتحول الضغوط الشعبية والحملة المجتمعية إلى وقود سريع الاشتعال يدفع الصحفيين نحو كشف الحقائق المسكوت عنها، خاصة في القضايا التي تمس حياة الناس مباشرة؛ مثل نهب المال العام وانتهاكات حقوق الإنسان، والتأمر على مستقبل البلد.

ولعل أبرز شاهد على ذلك ما حدث بعد ثورات «الربيع العربي» حين ارتفعت مؤشرات حرية الصحافة في عدة دول عربية قبل أن تتراجع من جديد تحت وطأة الثورات المضادة وعودة القبضة الأمنية وانكشاف المجتمعات العربية على هشاشة خطيرة في نسيجها الاجتماعي والوطني. وعلى الرغم من هذا التراجع، كشفت تلك المرحلة عن إمكانيات هائلة لتحالف المجتمع مع الصحافة الحرة في مواجهة مختلف أشكال السلطة، وعن دور الإعلام الاستقصائي وقوته في الرقابة والمساءلة.

لذلك سيظل الأمل قائماً بأن المجتمع - حين يشهد الخناق عليه - يعود ليبحث عن الحقيقة من جديد، ويجد في الصحافة المستقلة التي تحافظ على مسافة نقدية من كل الأطراف صوتاً يعبر عنه ويدافع عن مصالحه حين تسقط المؤسسات الرسمية في مستنقع التواطؤ أو العجز.

رغم هذه القيود التي تفرضها البنى الاجتماعية والسياسية من ضغوط وصمت ورقابة مباشرة وذاتية، إلا أن المجتمع قد يتحول في لحظات فارقة إلى الحليف الأقوى للصحافة الاستقصائية؛ فعندما تبلغ المعاناة ذروتها، ويتفشى الفساد البنيوي والفقر والبطالة، وتغيب الحريات والعدالة الاجتماعية، وتنتهك الكرامة الوطنية وحقوق

” المراجع

- (1) شبكة أريج للصحافة الاستقصائية. «مفجّر فضيحة التحرش الجنسي: الإعلام الأمريكي إلى تراجع تحت رئاسة ترامب». شبكة أريج للصحافة الاستقصائية، 2016. <https://n9.cl/kwp8w7>.
- (2) المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. «الانقلاب الرئاسي على الدستور في تونس: ظروفه وحيثياته ومآلاته». المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. <https://2u.pw/RE8pu/>.
- (3) «حكم غيايبي بسجن الصحفي التونسي وليد الماجري لمدة سنة». العربي الجديد. 2024. <https://2u.pw/MqWyz>.
- (4) الحمدو، باسل، أحمد حاج حمد، وآخرون. «الجيل الذهبي الكروي السوري المزيّف... مشاركة لاعبين سوريين شباب في بطولات دولية بأعمار مزيّفة». سراج. 2014. <https://2u.pw/UPGd1/>.
- (5) «صحافيون يعتصمون أمام نقابتهم استنكاراً للاعتداء على الزميل «أبو بيدر»». عمون. 2011. <https://85528/www.ammonnews.net/article>.
- (6) «عشائر العجاردة تصدر بياناً». التاج الإخباري. 2025. <https://2u.pw/f3kOG/>.
- (7) Hanusch, Folker. «Journalism, Culture, and Society.» Oxford Research Encyclopedia of Communication. Published September 29, 2016. Accessed May 2, 2025. DOI: 10.1093/acrefore/9780190228613.001.0001/acrefore-9780190228613-e-78
- (8) «عشائر العجاردة تصدر بياناً». التاج الإخباري.
- (9) «عشيرة التميمي: الاعتداء على الصحفيين يهدف لحجب الحقيقة». السوسنة الإخباري. 2012. <https://2u.pw/cd5eC>.
- (10) «قلق أممي إزاء تقارير الاغتصاب والعنف الجنسي ضد المعتقلين الفلسطينيين لدى إسرائيل». الأمم المتحدة. 2024. <https://news.un.org/ar/story.1134231/09/2024/>.
- (11) MohmedNajjar88@ «حادثة الاغتصاب في مستشفى الشفاء التي تحدثت عنها الشاهدة لقناة الجزيرة غير مثبتة، والكلام كان كلاماً عاملاً... رغم كل جرائم المحتل، إلا أنه لم يثبت حتى اللحظة أي حادثة اغتصاب...» March 24, 2024. X (formerly Twitter). <https://x.com/MohmedNajjar88/status/1771876331149463934>.
- (12) YouTube. «مقربون من حماس وشقيق صاحبة رواية اغتصاب النساء في مستشفى الشفاء: غير صحيحة وقالتها من باب المبالغة». YouTube video. Posted March 26, 2024. <https://www.youtube.com/watch?v=YQEjtsLVUKw>.
- (13) فرانك سميث. «استجماع الشجاعة لتغطية العنف الجنسي». لجنة حماية الصحفيين. تاريخ الدخول 13 أيار 2025. <https://n9.cl/cfcz6>.
- (14) الشوابكة، مصعب، محمد اغباري، ودانة جبريل. دليل التحقيقات الصحفية من أجل حقوق الإنسان. صحفيون من أجل حقوق الإنسان، 2020.
- (15) سميث، «استجماع الشجاعة».
- (16) المرجع السابق.
- (17) Hanusch, «Journalism, Culture, and Society».
- (18) Hanusch, «Journalism, Culture, and Society».
- (19) Hanusch, «Journalism, Culture, and Society».



الإعلام الرياضي في الجزائر.. هل أصبح منصة لنشر خطاب الكراهية؟

فتيحة زماموش

كيف انتقل خطاب الكراهية الرياضي من الشارع إلى مؤسسات الإعلام؟ وهل تكفي التشريعات القانونية للحد من تغذية الانقسام داخل المجتمع؟ وإلى أي مدى يمكن أن يلتزم الصحفيون بالموضوعية في ظل ضغوط شديدة من الجمهور؟
الصحفية فتيحة زماموش تحاور صحفيين رياضيين وأساتذة جامعيين، للبحث في جذور هذه الظاهرة.

تجاوزت لعبة كرة القدم في الجزائر حدود المنافسة داخل المستطيل الأخضر، لتُصبح ساحة تعكس صراعات أكبر، حيث تُحذر العديد من الأصوات من تحوّل المنابر الإعلامية الرياضية إلى منصات تُروّج لخطاب الكراهية.

تسلّلت هُتافات الجماهير أو المُشاحنات في المدرجات، إلى عمق الخطاب الإعلامي ذاته، عبر عناوين مُثيرة وتحليلات تلهب المشاعر وآراء مُنحازة تُغذي الانقسام، تحت غطاء «الإثارة»، مبتعدة تدريجياً عن رسالتها الأساسية في التوعية وتعزيز روح المنافسة.

من الشارع.. «تسلّل» ناعم

يمكن لمح كلمة: «المُتعصبون»، «fanatic -فاناتييك» مطبوعة بالأحمر على جدران عدّة أحياء شعبية معروفة بالجزائر يعكسه حب المناصرين لفرقهم، لكنها تخفي الكثير من الشحنات السلبية التي تُغذي عُقول المهووسين بالكرة.

أضحى هذا الخطاب المشحون بالتحريض ينتقل تدريجياً من الشارع إلى الإعلام، حيث تسلّلت هذه الظاهرة إلى بعض المؤسسات التلفزيونية في الجزائر، حتى أصبح من الصعب التمييز بين مُتعة اللعبة وأعراض المرض الذي يفتك بها من الداخل.

ورصدت السلطة الوطنية المستقلة لضبط السمعي البصري تجاوزات مهنية في بعض البرامج الرياضية خلال شهر نيسان / أبريل 2025، على قناة «الهداف»، وأشارت إلى خروج أحد المحللين عن الحياد والموضوعية في برنامجي «بالمكشوف» و«VAR الهداف» خلال الشهر ذاته. (1)

واعتبرت الهيئة الرسمية ذلك «خرقاً للقوانين المنظمة للإعلام والسمعي البصري في الجزائر»، كما شدّدت على أنّ «الإعلام الرياضي يجب أن يكون أداة لتعزيز الوعي وروح المنافسة الشريفة، لا وسيلة لإثارة الانفعالات أو التشكيك».

كما أوقفت الهيئة نفسها، برنامجين رياضيين هما «أحكي بالون» على قناة «البلاد» و«دزاير سبور» على قناة «دزاير تيوب»، بعد «رصد تجاوزات تضمّنت بث خطاب يحرض على الكراهية والتمييز ويمس بكرامة الإنسان» (2). وينصّ قانون «الوقاية من التمييز وخطاب الكراهية» الذي صدر في 2020 «على عقوبة السجن 7 سنوات مع التنفيذ ضدّ أي شخص يصدر كلاماً، شفويّاً أو مكتوباً، يتضمن عنصرية وتعبيراً عن الكراهية».

ويرمي القانون إلى «التصدي لخطاب الكراهية وتعزيز السلم الاجتماعي، حيث يحدد عقوبات صارمة ضد كل من يروج للكراهية والتمييز، وهو ما ينسجم مع توجهات السلطة في مراقبة الإعلام وضمان أن يكون أداة لنشر الوعي وروح المنافسة الشريفة، بدلا من أن يتحوّل إلى مصدر للانقسام والتحريض». (3)

من الملعب إلى الشاشة

الملفت أنّ هذا الخطاب المُتشجّع، أو المنحاز أحياناً، ليس وليد اليوم، بل تعود جذوره إلى تسعينيات القرن الماضي، مع ظهور الصحافة الخاصة، وتبلور في ظل بيئة سياسية واجتماعية مضطربة، ساهمت في تشكيل خطاب إعلامي مُتفاعل، لكنّه بعيد أحياناً عن المهنية.

هكذا يبرز سؤال جوهري: كيف يمكن للإعلام أن يوازن بين حرية التعبير ومسؤوليته في الحدّ من خطاب الكراهية في ظلّ تصاعد الضغوط الجماهيرية وسرعة التفاعل الإلكتروني؟

هذا السؤال ينبع من كون وسائل الإعلام لم تفصل بين اللغة الإعلامية المهنية واللغة الجماهيرية، فبات الخطاب أقرب إلى ما يُداول في الملاعب والمقاهي، يُخاطب العاطفة والانتماء أكثر مما يخاطب العقل بالمعلومة.

يُقرّ العديد من الصحفيين بأنّ عدوى خطاب الكراهية في الرياضة وخاصة كرة القدم، لم تُعدّ حكراً على الشارع والمدرجات، بل انتقلت إلى شاشات التلفزيون، فالحديث الرياضي يُنقل، في كثير من الأحيان، بلغة بسيطة ومُتفاعلة، تميل إلى استرضاء المشاهد/ المناصر، أكثر من سعيها إلى تقديم محتوى رصين يستند إلى التحقق من المعطيات، ويحتكم إلى أخلاقيات المهنة.

على هذا النحو يتحوّل الإعلام من ناقل مهني للخبر إلى صدى للجماهير، ما يُؤدّي إلى فقدان الدور الإخباري والتوعوي في الكثير من الأحيان، كما يُؤكد الصحفي حسن بن مولى.

ويحتاج حسن في تصريح لـ «مجلة الصحافة» بحال الصحفيين الذين فرّقتهم الكرة المستديرة: إذ أصبح بعضهم أسير انحيازه لفريق أو لاعب مُفضّل، فكان القلم أو الميكروفون ضحية لتعصّب صاحبه، الذي يتماهى أحياناً مع مشاعر الجمهور داخل الملعب».



المهني، أمّا الظهور على الشاشة، فله قواعده الخاصة، التي غالباً ما تُدار بمنطق «الفرجة - الاستعراض». يقول يزيد سياح الصحفي بالإذاعة الوطنية: «يتوجّه الإعلام الرياضي لقارئ ومُتلّق بسيط، لكن السماح للغة الشارع بالتسلّل إلى خطابات الصحفيين كان سبباً رئيسياً في تدهور مستوى المضمون. في النهاية، السؤال الجوهرى هو: مع من نتحدّث؟»

ويُضيف، أنّ المشكلة لا تقتصر على اللغة فقط، بل تمتدّ إلى الأسلوب والخطاب. «إذ تُمارس بعض المؤسسات الإعلامية ما يمكن وصفه بـ«العنف اللفظي»، حيث تنتقل المنافسة من الملاعب إلى أستوديوهات التحليل، التي تحوّلت، في نظر كثيرين، إلى ما يُشبه «الدكاكين التلفزيونية».

وثُعاني بعض القنوات الخاصة، التي وُلدت عام 2001، من فوضى هيكلية (4)، حيث اعتمدت

حملت العبارة «طابعا انفعالياً سلبيا، خاصة أنّ الصحيفة المعنية باتت طرفاً مع مرور السنوات في الانحياز لفريق دون آخر»، وفقاً لخط تحريري قوامه: «الفئة المستهدفة من الجمهور».

من خلال هذه العينة فقط-حسب بن مولى- فإنّ السقوط في الانحياز بات واضحاً، وهو ما أفقد بعض المؤسسات الإعلامية موضوعيتها.

البساطة أم الابتذال

قد يبدو هذا السؤال مُحرجاً للصحفيين، إذ أنّ البساطة الرائدة قد تُفهم على أنّها استخفاف، بينما يُعدّ الابتذال تهمة تُهدّد المصداقية.

وفقاً لـ «اعترافات» عدد من الصحفيين، بعضهم فضّل التحدّث باسم مُستعار، بدأت الصحافة الرياضية تجيد تدريجياً عن مسارها

لقد عنونت إحدى الصحف الرياضية صفحتها الأولى «اليوم ما تفرّاش في الحراش»، (لا مجال للتهدئة في منطقة الحراش)، وذلك قبيل مواجهة كانت مُبرمجة بين الجارين مولودية الجزائر واتحاد الحراش، حين كان الأخير لا يزال ضمن أندية القسم الأول.

تسلّلت هُتافات الجماهير أو المُشاحنات في المدرجات، إلى عمق الخطاب الإعلامي ذاته، عبر عناوين مُثيرة وتحليلات تُلهب المشاعر وآراء مُنحازة تُغذي الانقسام، تحت غطاء «الإثارة»، مبتعدة تدريجياً عن رسالتها الأساسية في التوعية وتعزيز روح المنافسة.

على الظهور الإعلامي السريع والمستعجل دون التركيز على بناء مؤسسات إعلامية مهيكلية ومنظمة بشكل جيد.

ضغط الاستقلالية والإثارة

تُبرز الباحثة في مجال الإعلام الرقمي بجامعة قسنطينة شرق الجزائر، كريمة آيت حمي، مكانة شبكات التواصل الاجتماعي التي أصبحت، «بمثابة منبر مفتوح للتعبير الشخصي، حيث اختار البعض استخدامها لطرح آرائهم الخاصة بعيداً عن مطالب الجمهور»، مشيرة إلى أن هناك من يختبئون

خلف أسماء مستعارة في «فضاء الوهم» الذي يخلقه الإنترنت.

ونضيف لـ «مجلة الصحافة»: «تُوَجَّه بعض القنوات التلفزيونية الأقلام وفقاً لميول موجاتها في إشارة صريحة إلى تراجع الاستقلالية المهنية أمام تغوّل الخط التحريري الموجه متجاوزاً الخطوط المهنية حدّ بث «سموم الكراهية»، وفق تعبيرها.

أمام هذه المعادلة المعقدة تتساءل آيت حمي: كيف يحافظ الإعلامي على الموضوعية، بينما يتعرّض لضغوط من الجمهور لاتخاذ الشارع مواقف منحازة؟ وفي كثير من الأحيان، يتحوّل اسمه إلى «ترند» على مواقع التواصل، فيجد نفسه

في مواجهة سيل من الانتقادات أو حتّى الإهانات، ما يجعله واقعاً تحت ضغط مزدوج: بين متطلبات المهنة ومتاهات الرأي العام المنقسم حول «الجلد المنفوخ» (تعبير يستخدم لوصف كرة القدم).

بدوره يعترف حميد زمال، الصحفي سابقاً والأستاذ بكلية الإعلام بالجزائر العاصمة، في حديثه مع «مجلة الصحافة» أنه في إحدى المرات حاول تقديم تغطية موضوعية لمباراة بين «شباب بلوزداد» و«وفاق سطيف»، لم يجد أمامه إلا تكرار كلمة «الأبيض»، التي تربط بين النّاديين العريقين كونهما يتشاركان اللون نفسه، وهذا سعيّاً منه لتقديم تغطية «موضوعية ومحيدة».



تؤدي المنصات الرقمية دوراً محورياً في تأجيج الخلافات، حيث تتحوّل بسرعة إلى منصات مفتوحة لتفريغ الغضب، سواء قبل المباريات الكبرى مثل التنافس على الترتيب أو بعدها في علاقة باللقاءات التي تعرف جدلاً تحكيمياً (تصوير: العربي الوافي - رويترز).

كثيراً ما تنزلق التعليقات على منصات السوشيال ميديا إلى مستوى تبادل التجريح تصل حدّ الشتم، مما يعمّق الانقسام بسبب سرعة انتشار هذا النوع من المحتوى المسيء، وهو ما يضعف الروح الرياضية، كما يُساعد في الآن نفسه على توليد ثقافة الكراهية.

من وسائل التواصل الاجتماعي إلى التلفزيون.. اتجاه معاكس

يُبرز أستاذ الاتصال، عبد الله لعربي من جامعة الجزائر، كيف تحوّل الإعلام الرياضي إلى مرآة تعكس بشكل غير مباشر، فيما يُثار على منصات التواصل الاجتماعي، إذ تجد التعليقات والانفعالات التي تنطلق من العالم الافتراضي طريقها إلى الشاشات، أحياناً دون تمحيص أو مسؤولية، مما يضعنا أمام تساؤل حقيقي.

ويلحظ الأستاذ لعربي في حديث لـ «مجلة الصحافة» تحولاً عكسياً، حيث أصبح الإعلام أداة لتكرار ما «تروّجه الجماهير، ممّا يسهم في تأجيج الانقسامات والتحريض وإذكاء الفتنة والكراهية بدلاً من نقل الأحداث بموضوعية كما يجب».

كما يتساءل هل ما تعرضه الشاشات يعكس فعلاً واقع الرياضة، أم أنّه مجرد صدى لغضب رقمي يعمّق الصراعات بدلاً من إيجاد الحلول؟

ويقول إنّ «الإعلام الرياضي لا يقتصر على نقل الوقائع من الملاعب فقط، بل أصبح أداة لتمرير ما يُقال في وسائل التواصل الاجتماعي»، مُعرّزاً بذلك الحساسيات خصوصاً ما يُعرف بـ«الجهوية المقيتة» التي تغذي بدورها الكراهية بين الجزائريين.

مثلما يؤكد الصحفي الحرّ مليك نواري.

ويُعبّر عن ذلك قائلاً: «في بعض الأحيان، يمكن أن يؤدي نشر معلومات مليئة بالتفرقة والعنصرية إلى تحويل نتيجة مباراة إلى رماد». (5)

ويسترجع مليك نواري في تصريح لـ «مجلة الصحافة» حادثة وقعت معه خلال تغطيته لمباراة نهائي كأس الجمهورية عام 2013 بين مولودية الجزائر واتحاد العاصمة، حيث كانت العناوين الصحفية في بعض المؤسسات الإعلامية تثير الفتنة، مثل العنوان البارز «الحرب في باب الوادي»، في إشارة إلى الحي الذي يلتقي فيه أنصار الفريقين. «للأسف، أحياناً تسهم الصحافة في تأجيج المواقف، رغم أن المباراة كانت بمثابة عيد بعيداً عن العنف الذي لم يكن له وجود إلّا في صفحات الجرائد، لذلك ينبغي دائماً التعامل مع الأحداث المثيرة للجدل بحذر، دون الانزلاق إلى تفسيرات قد تزيد من الاحتقان بين الجماهير».

ومن خلال تجربته في العديد من المنابر الإعلامية الجزائرية، قال إنّ مباراة الصعود من القسم الثاني بين اتحاد الحراش والرويسات (27 شباط / فبراير 2025) كادت أن تأخذ أبعاداً خطيرة، ووفقاً له أبرزت خطورة الانزلاق في الخطاب الإعلامي، خاصة عند التعليق على أحداث مشحونة. (6)

وفي هذا السياق؛ تُؤدّي المنصات الرقمية دوراً محورياً في تأجيج الخلافات، حيث تتحوّل بسرعة إلى منصات مفتوحة لتفريغ الغضب، سواء قبل المباريات الكبرى مثل التنافس على الترتيب أو بعدها في علاقة باللقاءات التي تعرف جدلاً تحكيمياً.

يُقرّ العديد من الصحفيين بأنّ عدوى خطاب الكراهية في الرياضة وخاصة كرة القدم، لم تعد حكرًا على الشارع والمدرجات، بل انتقلت إلى شاشات التلفزيون، فالحدث الرياضي يُنقل، في كثير من الأحيان، بلغة بسيطة ومُتفاعلة، تميل إلى استرضاء المشاهد/ المُناصر، أكثر من سعيها إلى تقديم محتوى رصين يستند إلى التحقق من المعطيات، ويحتكم إلى أخلاقيات المهنة.

ولكنه لا يُخفي ميلاً ضمنياً نحو أحد الناديين من خلال كلامه طيلة الـ 90 دقيقة من عمر تلك المباراة.

ويرى أنّه «ما يجعل من الموضوعية التي يدّعيها أمراً يصعب تحقيقه في ظل هذا الانحياز الضمني».

وفي السياق ذاته عبّر الأستاذ زمال عن أسفه لـ «تراجع مستوى الصحافة والإعلام، حيث أصبح التبسيط المُبالغ فيه سمة رئيسية للتغطيات الإعلامية».

الجهوية.. حين تتحوّل المباراة إلى أزمة

يتطلّب تحليل المباريات أكثر من مجرد فهم القواعد، فهو يشمل أيضاً المسؤولية في اختيار الكلمات والمعلومات الموجهة للجماهير،

شاملة للخطاب خاصة في علاقته بكرة القدم التي أصبحت في مناسبات عديدة لعبة تفرقة لا مُتعة وفرجة.

توسيع الفجوة بين الجماهير عن طريق تأجيج الجهوية تارة واللعب على وتر الانفعالات العاطفية تارة أخرى، وهو ما يستدعي مراجعة

ولفت إلى أنّ هذا السلوك لا يُضفي شرعية على الانفعالات الرقمية فحسب، بل يسهم في التحريض وتغذية الانقسام بين الجماهير مثل حالة مولودية الجزائر وشباب قسنطينة، إذ تحولت في الآونة الأخيرة إلى كراهية بين المناصرين وأعمال شغب، بدلاً من أن يكون عامل تهدئة.

بناءً على هذا الواقع الإعلامي المرتبك، يبدو أنّ خطاب الكراهية في الرياضة لم يَعد مجرد انزلاق ألفاظ، بل أصبح ظاهرة تتغذى من الشارع، كما تعيد إنتاج خطابات المنصات الاجتماعية وتنزيلها على البرامج التلفزيونية، ما أسهم في



تجاوزت لعبة كرة القدم في الجزائر حدود المنافسة داخل المُستطيل الأخضر، لتُصبح ساحة تعكس صراعات أكبر، حيث تُحذّر العديد من الأصوات من تحوّل المنابر الإعلامية الرياضية إلى منصات تُروّج لخطاب الكراهية (تصوير: بياراس أو ميديتش - غيتي).

”

المراجع

- (1) أوراغي، نضيرة. «دون عنوان». أخبار الوطن. الجزائر، 2025.
- (2) الشروق اليومي. «هل يريد ترامب جذب استثمارات جزائرية إلى أمريكا». الجزائر: موقع صحيفة الشروق اليومي، 2025. <https://www.echoroukonline.com>.
- (3) وكالة الأنباء الجزائرية. «قانون مكافحة التمييز وخطاب الكراهية: صيانة الوحدة الوطنية والانسجام المجتمعي». الجزائر: وكالة الأنباء الجزائرية، 2020. <https://www.aps.dz/ar/alger>. 48-32-11-22-12-2020-98474/ie
- (4) مزاح، سعيد. الفضائيات الجزائرية الخاصة بين الواقع والتحديات. الجزائر: جامعة باتنة، 2023.
- (5) Facebook. «فيديو منشور على Facebook Watch». Facebook Watch. تاريخ غير معروف. <https://www.facebook.com/watch/?v=683923400889039>.
- (6) وكالة الأنباء الجزائرية. «أحداث لقاء فريقي مستقبل الرويسات واتحاد الحراش: أصحاب المناشير الإلكترونية التحريضية في قبضة الأمن الوطني». وكالة الأنباء الجزائرية، 6 مارس 2025. <https://www.aps.dz/ar/algerie>. 176681/aps.dz/ar/algerie

كيف تعيد غزة تعريف العمل الصحفي

آنا ماريا مونخاردينو
ترجمة: إيمان أبو حية

مباشرة بعد الشروع في حرب الإبادة الجماعية أغلق الاحتلال الإسرائيلي غزة في وجه الصحفيين الدوليين، وتبنى نسقا إبديا ممنهجا ضد الصحفيين الفلسطينيين، أعاد «النشطاء» تعريف المهنة بتغطيات مفتوحة ومحدثة أحدثت نوعا من التوازن ضد الصحافة الغربية المنحازة.

ورغم أنهم تولوا المهام التي درجت العادة أن يتولاها مراسلون ذوو خبرة، إلا أنهم لم يحظوا بأي حماية.

تنص المادة 79 من البروتوكول الإضافي لاتفاقية جنيف على أن «الصحفيين المشاركين في مهام مهنية خطيرة في مناطق النزاع المسلح يُعتبرون مدنيين». ويُفترض أن يُطبّق (8) بعد ذلك «دون المساس بحق المراسلين الحربيين المعتمدين لدى القوات المسلحة»، كما ورد في المادة 4. لكن هذا الإطار القانوني لم يُطبّق، ولا يزال الصحفيون الفلسطينيون يدفعون الثمن حيث قُتل ما لا يقل عن 214 صحفياً إلى حدود الآن في إسرائيل والأراضي الفلسطينية المحتلة منذ

أكتوبر/تشرين الأول 2023، وهذا يجعل فلسطين «أخطر دولة في العالم على الصحفيين». وفي غزة وحدها، تشير مصادر أخرى إلى أن العدد قد يكون أعلى بكثير. وعلى هامش ذلك يرى كريس دويل أنه: «في القرن الواحد والعشرين ينبغي بذل جهد أكبر لحماية الصحفيين في مناطق النزاعات؛ لأن الحرب الإعلامية أصبحت على مستوى مختلف كلياً، والتحكم في السرد بات أمراً بالغ الأهمية». وبالنسبة لأبو بكر عابد، فإن مواصلة العمل الصحفي واجب لا محيد عنه؛ لأن خصومه في معركة التحكم بالسردية لا يقتصرون على مُحلّله فحسب، بل فيهم أيضاً قادة العالم ووسائل الإعلام الغربية الرئيسية. ويشرح ذلك قائلا: «ما

نكتبه وما نوثّقه وما نتحدث به هو شكل من أشكال المقاومة ضد الاحتلال، أعلم أنني أبلغ من العمر 22 عاماً فقط، لكنني مستعد للتضحية حتى آخر نفس». وبهذا الحس المسؤول تجاه الإنسانية - الذي يغيب بشكل كبير في تغطية وسائل الإعلام الغربية - ستظل أعلامه وتطلعاته كصحفي رياضي في المقام الثاني دوماً: «حتى لو أصبحت مراسلاً رياضياً، فإنني سأكون حاضراً كلما احتاجتني غزة؛ سأترك أي شيء، وسأتخلى عن كل شيء من أجل وطني، من أجل فلسطين».

بهذا المعنى، تتجاوز الصحافة الفلسطينية حدود ما يمكن أن تعنيه الصحافة إذا كان هدفها



كتب الصحفي حسام شبّات في تمهيد سبق مقتله على يد قوات الاحتلال في 25 مارس/آذار 2025: «على مدى الثمانية عشر شهراً الماضية، كرّست كل لحظة من حياتي لشعبي. وثقتُ الفُظائع في شمال غزة دقيقةً بدقيقة، مصمّماً على أن أظهر للعالم الحقيقة التي حاولوا طمسها» (وسائل التواصل الاجتماعي).

الأساس هو الهيمنة، كما أنها تمثل أنقى وأخطر أشكال الصحافة كما جسدت ذلك رسالة الوداع المفجعة التي كتبها حسام شبات «خاطرتُ بكل شيء من أجل نقل الحقيقة».

”
في ظل غياب الصحفيين الذين تُنسب إليهم «الاحترافية المهنية»، تحوّل الكثير من الشباب الفلسطينيين بفعل شهادتهم على هذه الحرب إلى صحفيين. هكذا أصبحنا نعتمد على عدد كبير منهم لمتابعة التحديثات اليومية، كما برز بعضهم واكتسبوا شهرة خاصة وحضوراً كبيراً، ممّن أرسوا نمطاً من السرد الصحفي الذي يتسم بالعمق العاطفي غير المحايد.

“

تحدي حياد الإعلام الغربي

في أغسطس/آب 2017 كتبت كريستيان أمانبور مذبة شبكة سي أن أن: «علينا دائماً أن نكون صادقين. لا محايدين» كما أضافت: «لقد تعلّمتُ من حرب البوسنة ألا أقع في فخّ المساواة الأخلاقية الزائفة». (9) ومع ذلك، وفي تظاهر فاضح بالحياد، فإن وسائل الإعلام الغربية ضبطت ساعة الرواية على السابغ من أكتوبر. فبعد سبعة عشر شهراً، لا تزال سي أن أن نفسها تصف «الحرب على حماس في غزة» بأنها «ردّ على هجمات 7 أكتوبر». وفي المقالات التي توثق جرائم الحرب الإسرائيلية الأخيرة

والانتهاكات المتكررة لاتفاق وقف إطلاق النار، لا تغفل هيئة الإذاعة البريطانية عن الإشارة دائماً إلى أن «هجوم حماس في أكتوبر 2023 أسفر عن مقتل نحو 1200 شخص». أما في صحيفة التايمز - وفقاً لتحقيق نشره موقع Declassified UK للصحفي حمزة يوسف - فقد تم تغيير عبارات مثل «منذ أكتوبر 2023» لتصبح «منذ هجمات حماس». (10)

هذا النوع من السرد هو محاولة مستمرة لصياغة «مساواة أخلاقية زائفة» بين هجوم حماس والإبادة الجماعية التي تنقّذها إسرائيل، وبين مقتل 1,139 إسرائيلياً ومقتل ما لا يقل عن 60 ألف فلسطيني، وبين يوم واحد من العنف و76 عاماً من الاحتلال. وقد أدى هذا التزييف في معادلة السرد إلى انحياز صريح دون جهد، لا سيما من قبل الوسيلة البريطانية التي تشتهر بشعارها: «الالتزام بتحقيق الحياد الواجب في جميع موادها الإعلامية». (11) كما صرح أحد صحفيي BBC لموقع Declassified UK: «رغم انعدام التناسب في هذا الصراع، كان محررو البرامج يصرون على «موازنة» الأصوات الفلسطينية بنظيرتها الإسرائيلية». (12) ويتساءل أبو بكر عابد حول ذلك: «ما دور الموضوعية في هذا السياق بالذات؟ في سياق الإبادة؟ ما معنى الموضوعية حين أرى الأطفال ممزّقي الأوصال أمام عيني؟ ما هي إن لم تكن مجرد تبرير للعنف؟».

وفي حالة جديدة من الانحياز المتخفي في ثوب الموضوعية، قامت هيئة الإذاعة البريطانية بسحب فيلم وثائقي بعنوان «غزة: كيف تنجو في منطقة حرب»، وذلك بعد موجة انتقادات تتعلق بوالد الراوي، الذي شغل منصب نائب

وزير الزراعة في حكومة حماس. أما الراوي نفسه، الطفل عبد الله اليازوري، البالغ من العمر ثلاثة عشر عاماً، فقد عبّر في حديثه مع موقع «ميدل إيست آي» عن خيبة أمله العميقة من القرار، قائلاً: «عملت على هذا الفيلم الوثائقي لأكثر من تسعة أشهر، فقط ليحمى ويُحذف بهذه البساطة. واكتشفت قرار سحبه من الأخبار التي كانت تُداول حوله. ولا، ولم أتلق أي اعتذار من بي بي سي».

وفي سياق مماثل، أشارت إليه الصحفية السابقة في الهيئة البريطانية كاريشما باتيل، في مقال يتحدث عن قرار استقالته؛ كتبت تقول: «تفشّل الموضوعية عندما تصبح وسيلتها الأساسية هي الموازنة المستمرة بين «طرفي» القصة وكأن كليهما على القدر ذاته من الصدق. المؤسسة الإعلامية التي ترفض الوصول إلى حقائق واضحة، تتحوّل إلى أداة في حرب المعلومات، حيث يُغرق أصحاب النيات السيئة منصات التواصل بادعاءات لا أساس لها، فيسقط الجميع في «ضباب» ما بعد الحقيقة. في مثل هذه السياقات تظل الحقائق المستندة إلى الأدلة وحدها هي القادرة على تبديد هذا الضباب». (13)

الصحفيون الناشطون: دروس من فلسطين

يرى الصحفي البريطاني الفلسطيني حمزة يوسف أن «محاولة تحقيق توازن مصطنع أو ادعاء الحياد في وجه الظلم، هو شكل من أشكال التواطؤ». ورّداً على هذا التواطؤ، يدفع الصحفيون المسجونون والمواطنون الصحفيون باتجاه إعادة تصوّر الدور الصحفي. ومن خلال

تحدي الرواية المؤسسية، وكشف الانحياز، وإعلاء أصوات غزة فإنهم يقودون تحولاً في المهنة يجعل من الشهادة على الإبادة مهمة أساسية لا تقبل المساومة.

هذا الدمج بين الصحافة والناشطة - بوصفها سياسة أو سلوكاً - يهدف إلى إحداث تغيير اجتماعي وسياسي يشجع على القيام بإعادة تصور جوهري للدور الصحفي؛ بحيث لا تشوّه الحقيقة، ولا يكافأ الانحياز مالياً أو سياسياً. ويقول يوسف: «لا بد من إدماج الناشطة في العمل الصحفي، واستخدام العزيمة الأخلاقية والإمكانات المهنية لكشف وتفكيك الأنظمة التي تنتج القمع. ولا بد أن يكون العمل الصحفي مدفوعاً ببصيرة أخلاقية».

هذا النوع من السرد هو محاولة مستمرة لصياغة «مساواة أخلاقية زائفة» بين هجوم حماس والإبادة الجماعية التي تنفذها إسرائيل، وبين مقتل 1,139 إسرائيلياً ومقتل ما لا يقل عن 60 ألف فلسطيني، وبين يوم واحد من العنف و76 عاماً من الاحتلال.

ويوافقه الرأي الصحفي والناشط أحمد شهاب الدين الذي يرى أن العمل بصفة الصحفي وصفة الناشط معاً لا يتعارضان بالضرورة، ويتساءل: «من يرغب في رواية القصص دون أن يغيّر شيئاً؟» (14) ورغم أن شهاب الدين راكم خبرة

في الشتات، فإن العلاقة بين الهوية والتجربة لا يمكن نفيها. وفي ثقافة إعلامية تُعدّ فيها الموضوعية المعيار النظري للمهنية، فإن هذا قد يؤدي إلى حصرهم في قوالب نمطية تستخدم غالباً للتشكيك في مصداقيتهم بدعوى أنهم «ناشطون» لا يملكون سلطة صحفية. لكن حين تصبح الموضوعية غطاءً زائفاً لانحياز مؤسسي، فإن ما يُوصم بأنه «عمل ناشطين» هو ما يتيح للصحفيين التحقيق في الظلم، ومواجهة التحيزات، وكشف الحقيقة حين تتخلى المؤسسات الصحفية السائدة عن القيام بذلك.

أما بالنسبة للصحفيين في فلسطين وخاصة في غزة - حيث يكون توثيق الشهادة لما يجري في حرب الإبادة مسؤولية وطنية، وضرورة لتحفيز التحرك الدولي - فإن هذا الرابط بين الهوية والتجربة لا يمكن أن يكون أشدّ تداخلاً منه في هذه الحالة؛ وذلك لأن هؤلاء الصحفيين كما يؤكد أبو بكر عابد يكونون بحق «جزءاً من الحدث».

مهنية في العمل في بعض من أعرق المؤسسات الإخبارية في العالم - من بينها هيئة الإذاعة البريطانية وصحيفة نيويورك تايمز، وعمل أستاذاً مساعداً في كلية الصحافة بجامعة كولومبيا، ويعدّ صحفياً متمرساً وفقاً للمعايير المؤسسية السائدة - إلا أنه يرى أنّ مجرد رواية قصص تُقر بواقع تجاهل النخب الإعلامية المنهجي والمتعمّد للإبادة الجماعية يعدّ فعلاً من أفعال التحدي والخروج عن المألوف. ويستحضر شهاب الدين ما قيل له أثناء مشاركته في ندوة عام 2012 حول الربيع العربي: «أنت لست صحفياً، بل ناشط». (15) وكأن الدورين لا يمكن أن يجتمعا. ويضيف: «بالنظر إلى عدد الأوصاف التي أطلقت عليّ في حياتي، أجد أنه من المثير للاهتمام أن يُقال عني ناشط؛ لأنها قيلت بنية الإهانة، لكنها في الحقيقة كانت مديحاً، وأنا بكل صراحة فخور بها، ولا يمكن إلا أن أكون كذلك».

وبالنسبة لأحمد شهاب الدين وغيره من الصحفيين الفلسطينيين



بالنسبة للصحفيين في فلسطين وخاصة في غزة - حيث يكون توثيق الشهادة لما يجري في حرب الإبادة مسؤولية وطنية، وهذا الرابط بين الهوية والتجربة لا يمكن أن يكون أشدّ تداخلاً منه في هذه الحالة (تصوير: أنس فتحة - غيتي).

المراجع

- (1) Sky News. "Open Letter Published from News Organisations Calls for Access to Gaza." c Sky News, July 11, 2024. <https://news.sky.com/story/open-letter-published-from-news-organisations-calls-for-access-to-gaza-13176605>.
- (2) CNN. X (formerly Twitter), October 11, 2023. <https://x.com/CNN/status/1712132220809298163>. (Content no longer available).
- (3) <https://www.nytimes.com/2023/12/28/world/middleeast/oct-7-attacks-hamas-israel-sexual-violence.html>
- (4) Mulla, Imran. "BBC Slammed for Pulling Film That Humanised Palestinian Children." Middle East Eye, February 21, 2025. <https://www.middleeasteye.net/news/bbc-slammed-pulling-film-humanised-palestinian-children>.
- (5) Doyle, Chris. "Palestinian Journalists Deserve International Protection." Arab News, December 2, 2024. <https://www.caabu.org/news/article/palestinian-journalists-deserve-international-protection-article-chris-doyle>.
- (6) Shabat, Hossam. "This is Hossam's team, and we are sharing his final message: 'If you're reading this, it means I have been killed...'" X (formerly Twitter), March 24, 2025, 8:12 p.m. <https://x.com/HossamShabat/status/1904219854183313461>.
- (7) المرصد الأوروبي لحقوق الإنسان. «في رسالة لوزراء خارجية الاتحاد الأوروبي.. الأوروبي المتوسطي يدعو لتحرك عاجل لوقف الإبادة الجماعية في غزة.» 20 أبريل 2025. <https://euromedmonitor.org/ar/6690/article>
- (8) International Committee of the Red Cross (ICRC). "Article 79: Measures of Protection for Journalists." Protocol Additional to the Geneva Conventions of 12 August 1949 (Protocol I), June 8, 1977. <https://ihl-databases.icrc.org/pt/ihl-treaties/api-1977/article-79>.
- (9) Amanpour, Christiane. "We must always be truthful, not neutral. I learned from the Bosnia war never to draw false moral equivalence." X (formerly Twitter), August 18, 2017, 5:23 p.m. <https://x.com/amanpour/status/898551020242046976>.
- (10) Yusuf, Hamza. "'Battle for the Truth': Pro-Israel Bias inside UK Newsrooms Revealed." Declassified UK, February 20, 2025. <https://www.declassifieduk.org/battle-for-the-truth-pro-israel-bias-inside-uk-newsrooms-revealed/>.
- (11) BBC. "Editorial Guidelines – Section 4: Impartiality – Introduction." BBC Editorial Guidelines. <https://www.bbc.co.uk/editorialguidelines/guidelines/impartiality/>.
- (12) Yusuf, Hamza. "'Battle for the Truth': Pro-Israel Bias inside UK Newsrooms Revealed." Declassified UK, February 20, 2025. <https://www.declassifieduk.org/battle-for-the-truth-pro-israel-bias-inside-uk-newsrooms-revealed/>.
- (13) Patel, Karishma. "I'm a Former BBC Newsreader – Gaza Is the Reason I Resigned." The Independent. March 5, 2025. <https://www.independent.co.uk/voices/bbc-gaza-documentary-tim-davie-israel-b2708547.html>.
- (14) Luca's Insight Track. "When Does a Journalist Become an Activist?" YouTube Shorts. February 25, 2025. <https://www.youtube.com/shorts/LVMZgqRRB3Y>.
- (15) Shihab Eldin, Ahmed. "Design Activism in a Meaningful Way." What Design Can Do. 2018. <https://www.whatdesigncando.com/talks/design-activism-in-a-meaningful-way-ahmed-shihab-eldin/>.

أن تحكي قصص الأطفال من غزة!

ريما القطاوي

تبدو تجربة الصحفية الفلسطينية ريما القطاوي مختلفة تماماً في الاشتغال على القصص الإنسانية. في معهد الأمل بغزة التقت أطفال يعيشون ظروفًا قاسية بعد فقدان عائلاتهم، ولم تخل التجربة من تحديات مهنية وأخلاقية. أين ينتهي التعاطف وأين تبدأ المهنة؟ وكيف يمكن التعامل مع الأطفال، وهل مقبول من الناحية الأخلاقية إجراء المقابلات معهم؟

حين جلست أمام يوسف؛ الطفل يوسف عامر جنديّة، الناجي الوحيد من عائلته التي قضت في مجزرة 13 أكتوبر 2023، في معهد الأمل بغزة، شعرتُ بأنني أمام طفل لم يخرج بعد من دوامة الصدمة: عينان تأهتان، وصوت خافت كما لو كان يحكي فصول الألم دون أن يدرك تمامًا حجم الكارثة التي مرت فوق رأسه الصغير. كنت أعرف أنني في مواجهة لحظة حساسة جدًّا، لا يمكن أن تختصر في إجراء مقابلة صحفية مجردة مع طفل صغير لا يزال تحت وطأة الصدمة. في كل سؤال كنت أحاول طرحه على يوسف، حاولت ألا ألمس وجعه أو أزيد من ألمه، بينما كانت مشاعر الخوف تلاحقني طوال الوقت خشية تجاوز حدود ما يستطيع تحمله. كان كل جزء في المقابلة يشكل تحديًا نفسيًا لي: كيف أقدم له مساحة للتعبير دون أن أضغط عليه؟ كيف أوازن بين ما يفرضه دوري أنا الصحفية وبين رغبتني في حمايته من أوجاعه التي لم تلتئم بعد؟ وهل من الأخلاقي إجراء المقابلة أصلاً؟ والحقيقة أنها لم تكن مجرد أسئلة وأجوبة، بل صراعًا داخليًا مستمرًا بين المهنية والعاطفة.

توازن صعب

38 ألف طفل يتيم و14 ألف أرملة أصبح مصيرهم في غياهب المجهول إثر جرائم متتالية يرتكبها الاحتلال الإسرائيلي منذ 7 أكتوبر/تشرين الأول 2023 في قطاع غزة. لم يكن هؤلاء مجرد أرقام، بل قصصا حثمت عليّ بصفتي صحفية مستقلة توثيقها خاصة في معهد الأمل بغزة.

كانت هذه القناعة تدفعني للكتابة، ليس فقط من باب

الواجب المهني، بل لأنها التزام أخلاقي وإنساني، لأن قصصهم جديرة بالبقاء. في كل مرة جلست فيها مع طفل فقد والديه استحضرت كلمات الدكتور الشهيد رفعت العرعر: «إن كان لا بد من أن أموت، فعليك أن تعيش أنت لتروي حكايتي».

واليوم، في غزة، نحمل على عاتقنا مسؤولية نقل هذه الأمانة، نحن جيلها وشهودها وضحاياها. نسرد للعالم حكاية هؤلاء الأطفال، لتظل أصواتهم شاهدة على الحقيقة، وعلى صمود شعب لم تنكسر روحه رغم كل شيء.

فالصحافة، في جوهرها، ليست مجرد أداة لنقل الحدث، بل وسيلة لإعادة الاعتبار للضحايا، وتوثيق الألم والأمل معًا في عالم يزدحم بالأخبار، لكنه غالبًا ما يغفل عن الجانب الإنساني للأحداث. وفي هذا السياق، تبرز القصة الصحفية الإنسانية باعتبارها أهم الفنون الصحفية التي تتيح تجاوز حدود الخبر التقليدي، وتعتمد على السرد الإنساني العميق الذي يمكن القارئ من فهم الواقع بصورة أكثر شمولية.

على المستوى الإنساني، كان التعامل مع الأطفال يتطلب حساسية خاصة؛ فهم ليسوا مجرد مصادر صحفية، بل أرواح تحمل قصصًا تستحق أن تُروى بكرامة واحترام. لذا، كان لا بد من بناء علاقة قائمة على الثقة، مع الحرص على حمايتهم من أي ضرر نفسي قد ينجم عن المقابلات أو السرد الصحفي.

كانت تجربتي في تغطية قصص الأطفال في معهد الأمل للآيتام زاخرة بالمعرفة وكذلك التحديات؛ حيث تطلبت توازنًا دقيقاً بين المصداقية المهنية والالتزام بالمعايير الأخلاقية للصحافة الإنسانية.

أدركت أن الصحفي يتقاطع مع آلام شعبه ويعيش تفاصيلها. لذلك من الضروري أن يقدم سردًا مؤثرا وموضوعيا دون الوقوع في فخ الإثارة العاطفية أو التوظيف غير الأخلاقي لعناصر القصص التي يغطيها؛ فالمسؤولية الصحفية تفرض تقديم صورة واقعية دون مبالغة، مع الالتزام بمعايير النزاهة والدقة.

على المستوى الإنساني، كان التعامل مع الأطفال يتطلب حساسية خاصة؛ فهم ليسوا مجرد مصادر صحفية، بل أرواح تحمل قصصًا تستحق أن تُروى بكرامة واحترام. لذا، كان لا بد من بناء علاقة قائمة على الثقة، مع الحرص على حمايتهم من أي ضرر نفسي قد ينجم عن المقابلات أو السرد الصحفي.

لم يكن الأمر سهلاً، فقد واجهت تحديات نفسية أيضًا؛ ذلك أن بعض القصص كنت بحاجة لاستيعابها أولاً ثم الكتابة عنها، وهذا كان يتطلب وقتًا إضافيًا. لم يكن هدفي فقط تسليط الضوء على معاناتهم، بل منحهم الفرصة ليكونوا هم الرواة الحقيقيين؛ ينقلون أحلامهم ومخاوفهم وتفاصيل حياتهم التي تعكس أبعادًا إنسانية تتجاوز حدود الأسماء والصور.

تكمن أهمية القصة الصحفية الإنسانية في قدرتها على خلق وعي مجتمعي حول قضايا الأطفال الآيتام؛ لأنها لا تقتصر على سرد المعلومات فقط، بل تضع القارئ

في قلب الحدث؛ ليعزز ذلك فهمه وتعاطفه مع الشخصيات التي تتناولها القصة. القصة الصحفية ليست انعكاسًا للواقع فحسب، بل جسرٌ يمتد بين من يعيشون المعاناة ومن يقرؤون عنها؛ ليشعروا بها ويدركوا أبعادها، وربما يتحركون لأجلها.

هذه التجربة تجاوزت كونها إضافة إلى خبرتي الصحفية؛ فقد غيرت نظرتي إلى الحياة، تعلمت أن الصحافة ليست مجرد نقل للحدث، بل هي وسيلة لفهم الإنسان خلف الخبر. رأيت في عيون الأطفال شغفًا بالحياة رغم قسوة الظروف، وأدركت أن لكل طفل قصة تستحق أن تُروى بطريقة تحترم تفاصيلها وتعكس حقيقةً.

هذه التجربة تجاوزت كونها إضافة إلى خبرتي الصحفية؛ فقد غيرت نظرتي إلى الحياة، تعلمت أن الصحافة ليست مجرد نقل للحدث، بل هي وسيلة لفهم الإنسان خلف الخبر. رأيت في عيون الأطفال شغفًا بالحياة رغم قسوة الظروف، وأدركت أن لكل طفل قصة تستحق أن تُروى بطريقة تحترم تفاصيلها وتعكس حقيقةً.

قصص إنسانية

لم تقتصر تغطيتي على إبراز معاناة الأطفال فقط، بل سلطت الضوء على أحلامهم وطموحاتهم،

خلال تغطيتي الميدانية للمأساة الإنسانية، شعرت بثقل المسؤولية التي لا يمكن تجاهلها بصفتي صحفية مستقلة. كان اللقاء مع الطفل يوسف عامر جندي، الناجي الوحيد من عائلته التي قضت في مجزرة 13 أكتوبر 2023. لحظة لا يمكن أن تمحي من ذاكرتي. يوسف البالغ من العمر 11 عامًا فقد والده والدته وخمس شقيقات في تلك اللحظة المروعة. منذ بداية الحرب، كان يقيم في المعهد، واليوم بعد رحلة علاج طويلة في مستشفى الشفاء، يحاول أن يستعيد شيئاً من حياته الطبيعية ويستكمل دراسته.

لم يغيب عن ذهني أبدًا دور التعليم في حياة يوسف رغم معاناته. سألت إدارة المعهد عن كيفية متابعة دراسته في ظل حالته النفسية؛ لأعرف أن المعهد يوفر خيمًا تعليمية للأطفال النازحين، وأن يوسف يظهر حرصًا كبيرًا على مواصلة تعليمه؛ فلا يتغيب عن أي حصة دراسية. كان التزامه بالعلم رسالة أمل وسط هذا الخراب.

أثناء حديثي مع يوسف سألته بلطف: «لو في شي نفسك يرجع متل ما كان قبل الحرب، شو هو؟» ساد صمت طويل. نظر يوسف بعيدًا ثم أجاب: «يرجع بابا وماما وخواتي كلهم...» توقف قليلاً، أخذ نفسًا عميقًا وأضاف: «...وترجع المدرسة». ثم نظر إليّ مرة أخرى: «...بدي أصير متل بابا، طبيب».

اليوم، تتكفل مدرسة دار الأرقم بتعليم يوسف، بالإضافة إلى إشراف المعهد على حالته النفسية ورعايته الكاملة، من خلال برامج دعم نفسي وإرشاد تربوي. ورغم

لا سيما في مجال التعليم وسط الوضع الراهن في غزة؛ فالتعليم في المعهد يركز على المرحلة الثانوية «التوجيهي» لأهميتها الخاصة في حياة الطلاب. ومع ذلك، يواجه الطلاب تحديات كبيرة، بدءًا من نقص الأساسيات مثل: الكراسي والفصول الدراسية والقرطاسية، ووصولاً إلى ضيق المساحة وندرة الورق، إضافة إلى التكلفة الباهظة للطباعة وغياب التقويم السنوي للتعليم. ورغم هذه العقبات، يصرّ الطلاب على الحضور يوميًا، حاملين كراسيهم من مسافات بعيدة لاستكمال دراستهم.

أذكر دائمًا المشرفة التربوية الأستاذة سلوى حلس، التي ألهمتني بعبارة «ما في أصعب من أن تربي طفلة لمدة 10 سنوات وفجأة تستشهد هي وأخوتها. هذا الشيء كفيّل يخليك أحنّ مع الأطفال، وتعملي حساب الكلمة مع الطفل قبل ما تتكلمي» هذه الكلمات كانت تذكيرًا قويًا لي بأهمية العناية بالكلمات في التعامل مع الأطفال.

من بين الذين تركوا في نفسي أثرًا عميقًا، تلميذة ذات 16 عامًا، فقدت كل أفراد عائلتها في الحرب، لتظل الناجية الوحيدة. ورغم الإصابات البليغة التي تعرضت لها، تمكنت من حفظ القرآن الكريم كاملاً خلال تلك الفترة، وقد تبنّى المعهد حالتها بمتابعة خاصة مع أخصائية نفسية؛ لمساعدتها على تخطي محنتها وتأمين بيئة تعليمية وداعمة لها، ليس فقط على المستوى الأكاديمي بل النفسي أيضًا. هذه الطالبة تمثل نموذجًا للصمود؛ حيث إن التعليم بالنسبة لها كان وسيلة للبقاء والتعافي وسط الظروف القاسية التي عاشتها.



الصحافة، في جوهرها، ليست مجرد أداة لنقل الحدث، بل وسيلة لإعادة الاعتبار للضحايا، وتوثيق الألم والأمل معًا في عالم يزدحم بالأخبار، لكنه غالبًا ما يغفل عن الجانب الإنساني للأحداث (تصوير: عبد الحكيم أبو رياش - غيتي).

سألتها: ما هي التحديات التي تواجهينها في غياب زوجك؟ وكيف تتعاملين مع أطفالك لتوفير جو آمن لهم؟

أجابت إسلام: كل شيء صعب. لا يوجد شيء يمكن أن يعوض غياب الأب. كثيرًا ما يسألني أولادي، خاصة طفلي ذات السنوات الثلاثة والتوعم اللذين يبلغان ست سنوات: ماما، وين بابا؟ فأجيبهم: بابا في الجنة. الحمل كبير، ولهذا قررت استكمال دراستي الثانوية (التوجيهي) في المعهد، حتى أتمكن من توفير حياة أفضل لأطفالي.

سألتها: هل تشعرين أنك ستتجاوزين هذه المرحلة؟ أجابت إسلام: «آه، لازم أتجاوزها. ما في خيار ثالث. الكهرباء مش متوفرة دائمًا، بالإضافة لالتزامات الأطفال وتربيتهم. المسؤولية كبيرة، لكن رح أبقي أحاول؛ لأنه التعليم للبنات قوة».

أمام كل كتابة صحفية، أجد نفسي في حيرة عميقة: كيف يمكنني أن أصف ما لا يُوصف؟! كيف يمكنني أن أقول ما لا يُقال عن أطفال فقدوا كل شيء؟! هذا يضعني في صراع داخلي مستمر بين المهنية والعاطفة، وأمام قدرة اللغة على التعبير عن واقع يفوق حدود الكلمات.

إن تغطية القصص الصحفية الإنسانية للأطفال الأيتام في معهد الأمل بغزة لم تكن مجرد تجربة مهنية فحسب، بل كانت رحلة إنسانية أثرت رؤيتي لدور الصحافة في خدمة القضايا المجتمعية.

كل الألم، ما زال هناك أمل وأحلام كبيرة لطفل لم يتجاوز بعد صدمة فقدان، ولكنه يسعى بثبات لاستعادة جزء من حياته التي فقدوها.

”
أمام كل كتابة صحفية، أجد نفسي في حيرة عميقة: كيف يمكنني أن أصف ما لا يُوصف؟! كيف يمكنني أن أقول ما لا يُقال عن أطفال فقدوا كل شيء؟! هذا يضعني في صراع داخلي مستمر بين المهنية والعاطفة، وأمام قدرة اللغة على التعبير عن واقع يفوق حدود الكلمات.

“
وفي المعهد نفسه، حيث يتلقى يوسف الدعم والرعاية، كانت إسلام عاطف جندية، 25 عامًا، أرملة وأمّ لثلاثة أطفال، انتقلت إليه بعد أن فقدت زوجها ووالده في هجوم صاروخي على الحرازين- الشجاعية. تقول إسلام: «كنت في منطقة الحرازين بالشجاعية عندما استهدفتنا صواريخ متتالية. كان زوجي ووالده معنا، واستشهدا على الفور في تلك اللحظات المروعة. بعد تلك التجربة القاسية، انتقلت أنا وأطفالي إلى معهد الأمل للأيتام بتاريخ 17 فبراير 2024. لكن حتى في المعهد، لم نكن في مأمن؛ إذ تعرضت أجزاء من مباني المعهد للقصف بينما كنا موجودين هناك، فزاد هذا من صعوبة الوضع الذي كنا نعيشه».



يواجه الطلاب تحديات كبيرة، بدءًا من نقص الأساسيات مثل: الكراسي والفصول الدراسية والقرطاسية، ووصولًا إلى ضيق المساحة ونُدرة الورق، إضافة إلى التكلفة الباهظة للطباعة وغياب التقويم السنوي للتعليم (تصوير: محمود أبو حمدة - غيتي).



كيف يصوغ الإعلام الغربي كارثة المجاعة في قطاع غزة؟

فداء القدرة

هل يمكن لوسائل الإعلام أن تخضع موضوع المجاعة في فلسطين للتوازن المهني حتى بعد إقرار المنظمات الأممية ومحكمة العدل الدولية بذلك؟ لماذا تفادت الكثير من وسائل الإعلام الغربية توصيفات قانونية وأخلاقية دقيقة، مثل «مجاعة» (famine) أو «تجويع» (starvation) ولجأت إلى تعابير فضفاضة مثل «نفاذ الغذاء» أو «أزمة تغذية» ألا تنطوي هذه الممارسة على تحيز واضح لصالح الرواية الإسرائيلية وتبرير لسياسة «التجويع الممنهجة»؟

منذ اندلاع الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة في أكتوبر 2023 يعيش أكثر من مليوني فلسطيني تحت وطأة ظروف إنسانية كارثية غير مسبوقة؛ الحصار الإسرائيلي المستمر والتدمير الشامل للبنية التحتية والعرقلة الممنهجة لإدخال أبسط المساعدات الإنسانية العاجلة، إلى جانب استمرار القصف والعمليات العسكرية، كل ذلك خلق أزمة إنسانية وصفها الأمم المتحدة ومنظمات دولية بأنها تشكّل «مجاعة جماعية»، متهمة إسرائيل بفرض ظروف «تجويع» متعمّد لسكان القطاع بهدف الدفع إلى تهجيرهم وتوسيع «بيئة الإبادة الجماعية» في القطاع.

ففي مطلع تموز/يوليو العام الماضي، أعلنت مجموعة من الخبراء المستقلين في الأمم المتحدة في بيان صحفي (1) أن إسرائيل تشنّ «حملة تجويع متعمّدة ومحدّدة الهدف» وأنّ ذلك «شكل من أشكال عنف الإبادة الجماعية». كما أوضح البيان أن تزايد حالات الوفاة بين الأطفال الفلسطينيين بسبب الجوع وسوء التغذية «لا يترك أي مجال للشك في أنّ المجاعة قد تفشت في جميع أنحاء قطاع غزة».

إلا أن شبح المجاعة كان قد خيم على سكّان غزة بعد أشهر معدودة فقط من بدء الحرب إبان السابع من أكتوبر؛ ففي الدعوى التي أقامتها جنوب أفريقيا أمام محكمة العدل الدولية ضد إسرائيل ثمة بنود في نص الدعوى (2) توضّح كيف دفعت إسرائيل القطاع بأكمله إلى «حافة المجاعة»، كما تتواتر في الدعوى شهادات خبراء ووكالات دولية بشأن خطر الجوع هناك وارتفاع مستوياته، حتى في ما كان يسمّى «المناطق الآمنة».

أما مؤسسة «آي بي سي» (IPC) التي تعدّ الجهة المعتمدة دوليًا في تصنيف مستويات الأمن الغذائي فقد أعلنت في تقريرها الصادر في 18 آذار/مارس 2024 عن تفعيل لجنة مراجعة «المجاعة» في المؤسسة للنظر في الظروف الغذائية المتدهورة وذلك بالنظر إلى شدة الأدلة المتوفرة، كما أكّدت المؤسسة في تقريرها (3) أن نتائج مراجعة اللجنة تشير إلى أن المجاعة في ذلك الحين (أي في الربع الأول من العام الماضي) «متوقعة ووشيكّة في محافظتي شمال غزة وغزة، ومن المرجّح أن تنكشف بشكل فعلي في الفترة ما بين منتصف آذار/مارس 2024 وآذار/مايو 2024». كما عادت المؤسسة وأكّدت في آخر تقرير لها في 12 أيار/مايو 2025، أن «سكان غزة بأكملهم يواجهون خطرًا حرجيًا يتمثل في المجاعة» وذلك بحسب ما نقلته عنها وكالة رويترز. (4)

وعليه، فإن المؤشرات على هذه الكارثة واضحة وموثقة موضوعيًا في عدد من التقارير المستقلة والمعتبرة المعترف بها، ورغم ذلك فإن جزءًا من التغطية الإعلامية الغربية ظلت - في كثير من الأحيان - متحفظة في بيان هذا الجانب من المأساة التي يعاينها الناس جميعًا اليوم في غزة، مع تجنّب استخدام مصطلح «مجاعة» رغم توفر شروطه القانونية والإنسانية.

ولعل هذا الانحياز المهني يتجلى بشكل خاص في تناول المحدود في وسائل إعلام غربية لسياسة التجويع التي تمارسها إسرائيل وتتبناها علنًا وبشكل ممنهج، مع أنّ ذلك يشكّل جريمة حرب وجرائم ضدّ الإنسانية بحسب تقارير عديدة مبكّرة؛ كان من أبرزها تقرير هيومان رايتس ووتش (5) «إسرائيل: استخدام

التجويع كسلاح حرب في غزة» الذي صدر في 18 ديسمبر/كانون أول 2023.

«مجاعة» أم «أزمة جوع»؟

يعد انتقاء المفردات والمصطلحات أحد أبرز أنماط التحيز الإعلامي، خصوصًا في السياقات التي تتقاطع فيها الكوارث الإنسانية مع حسابات السياسة والاقتصاد المعقّدة. ففي الحالة الفلسطينية - كما هي في قطاع غزة خلال هذه الحرب - تفادت معظم وسائل الإعلام الغربية الكبرى استخدام توصيفات قانونية وأخلاقية دقيقة، مثل «مجاعة» (famine) أو «تجويع» (starvation) ولجأت إلى تعابير فضفاضة مثل «نفاذ الغذاء» (6) أو «أزمة تغذية» (7) وهي تعابير تحوّل وقائع موصوفة صحفيًا وقانونيًا بأنها «مجاعة» إلى مجرد أزمات محتملة، أو في أسوأ الأحوال «مشاكل فنيّة» أو «لوجستية»، وهو ما يحدّ بالتالي من مدى التضامن والتعاطف مع الضحايا.

هذا التردد في التسمية ليس مجرد مشكلة اصطلاحية أو خيارا تحريريًا بين خيارات مهنية متعددة، بل إنه يحمل دلالات واضحة ضمن آلية من إعادة إنتاج الحقائق فيما يتعلق بالحرب الإسرائيلية على غزة، ضمن نظام إعلامي رأسمالي ينحاز إلى المصالح الضيقة للنخب المهيمنة، ولو على حساب القيم والمعايير الصحفية الأساسية. فهذا التحفظ العام المرصود في وسائل إعلام غربية بشأن تسمية حالة الانهيار الكامل في الأمن الغذائي للفلسطينيين في غزة «مجاعة»، هو محاولة أخرى ضمن أنماط التحيز والتضليل الأخرى؛ للتأثير في



أهميته يتحول في بعض السياقات إلى وسيلة لتشويه الحقيقة، خاصة عندما يتم تطبيقها على وقائع موثقة تتعلق بجرائم حرب أو جرائم ضد الإنسانية؛ ففي التقارير التي سلطت الضوء على الواقع الغذائي في قطاع غزة، وفي صحف ووسائل إعلام كبرى؛ مثل شبكة سي أن أن، (9) وبي بي سي، (10) ونيويورك تايمز، (11) وغيرها، بدا الالتزام بهذا «التوازن» دالاً على خلل عميق في أخلاقيات الصحافة والعمل الإعلامي المهيمن غربياً، بحيث يؤدي إلى تحويل قضايا - مثل استخدام الجوع سلاحاً - إلى أمر قابل للنقاش الأخلاقي والتداول والتشكيك، وذلك بمجرد تصدير رواية مضادة من الناطق باسم الحكومة أو الجيش الإسرائيلي، تحت دعوى «التوازن» في التغطية، ومن دون قدرة في كثير من الأحيان على توجيه الأسئلة الصعبة إليهم.

ثمة استثناءات في هذا المشهد؛ كتلك الافتتاحية التي ظهرت في الغارديان (12) الرابع من مايو/أيار 2025، التي أشارت في عنوانها إلى استخدام الاحتلال الإسرائيلي للجوع كسلاح حرب في غزة، وأن المجاعة هناك ليست مجرد نتيجة عرضية للحرب، بل أداة ممنهجة لتجويع السكان.

إن هذا النمط من التعمية على الجريمة في غزة ليس جديداً ولا يمثل انحيازاً عرضياً، بل هو مظهر لبنية استعمارية وعنصرية عميقة في نظم الإعلام الغربية، (13) تعيد إنتاج تفاوتات القوة والهيمنة، فتري في المراسل الأجانب أو المتحدث باسم المؤسسات الغربية المصدر الموثوق الوحيد، بينما تُهمَّش الأصوات المحلية رغم كفاءتها وتضحياتها من أجل نقل الحقيقة.

الرأي العام وتوجيهه ومحاولة حصر السردية في مفردات وصياغات مبهمّة يعاد إنتاجها على نحو واسع، تخفف من وقع المأساة وتأنى بالمسؤولية عن الجاني. وهكذا، يصبح التلاعب بالمصطلحات أداة لنزع الصفة الجنائية عن الجريمة، وتمييع جانب المساءلة فيها.

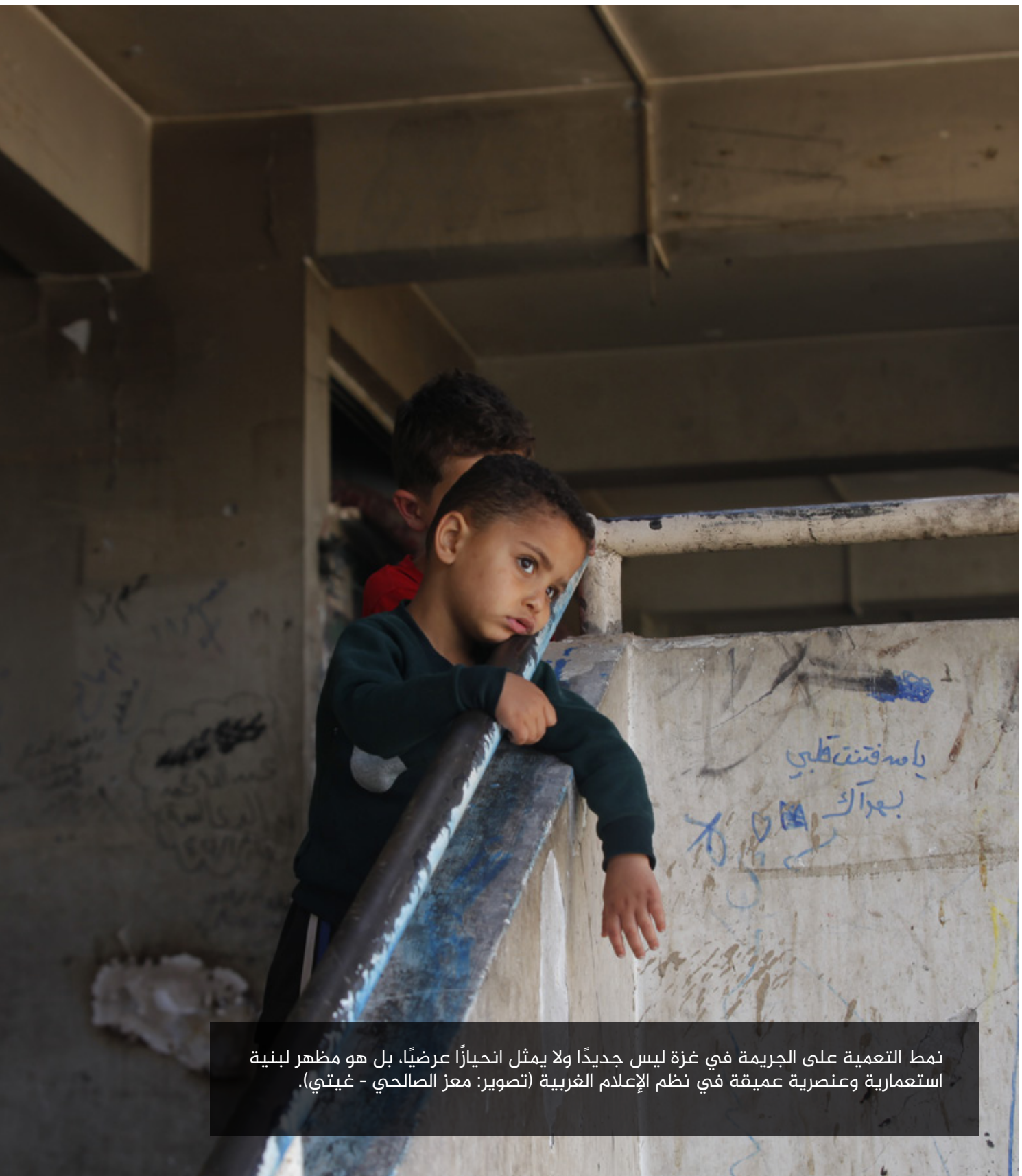
وعلى سبيل المثال، سلط تحقيق (8) رويترز الضوء على تردد النظام الدولي - بما في ذلك المنظمات الإنسانية الكبرى - في إعلان حالة المجاعة رسمياً في قطاع غزة بهذا المصطلح رغم وفرة الأدلة. ويشير التقرير إلى حالة من التنسيق غير المعلن عنه، بحيث تتيح إسرائيل بين فترة وأخرى دخول قدر محدود من المساعدات، بهدف تأخير إعلان منظمة ما عن حالة المجاعة، وهو ما انعكس بدوره على الإعلام الغربي الذي يأخذ إشارات من هذه المؤسسات.

يذكر التقرير نقلاً عن جيريمي كويندي رئيس منظمة «اللاجئين الدولية» أن إصدار إعلان رسمي حول وجود مجاعة في غزة كان يمكن أن يمثل إشارة حاسمة على الكارثة التاريخية الجسيمة الناجمة عن العمليات العسكرية التي تنتهجها إسرائيل؛ فكلمة «المجاعة» بحسب كويندي «تحمل قدراً هائلاً من القوة؛ فهي تنقل الأمر من مجرد توصيف تقني إلى حكم تاريخي» إلا أنه حكم حاولت إسرائيل - بنجاح حتى اليوم - التنصل منه، وقد ساعدها في ذلك الدور الذي أدّته وسائل الإعلام.

فمن المبادئ الجوهرية للعمل الصحفي تقديم وجهات النظر المختلفة باعتبار ذلك ضماناً لتعدد الأصوات وتوازن التغطية وتجنب الانحياز، غير أن هذا المبدأ على



يعد انتقاء المفردات والمصطلحات أحد أبرز أنماط التحيز الإعلامي، خصوصًا في السياقات التي تتقاطع فيها الكوارث الإنسانية مع حسابات السياسة والاقتصاد المعقدة (تصوير: معز الصالحي - غيتي).



نمط التعمية على الجريمة في غزة ليس جديدًا ولا يمثل انحيازًا عرضيًا، بل هو مظهر لبنية استعمارية وعنصرية عميقة في نظم الإعلام الغربية (تصوير: معز الصالحي - غيتي).

هذا الشكل من التغطية الصحفية بشأن المجاعة في قطاع غزة يُفرّغ المسألة من بُعدها الإنساني العاجل عبر تقديمها بلهجة إدارية منزوعة من التجربة الإنسانية، وتتحوّل مع ذلك صور الأطفال والشيّوخ والمرضى الذين يموتون جراء الجوع إلى مجرد أرقام في تقارير تتضمن

شَتَّى أشكال التشكّك والتحفّظ مع الحرص الدائم على عرض الرواية الإسرائيلية بل حتى تصديرها.

إن هذا التحيّز المنهجي للرواية الرسمية الإسرائيلية لا يعكس فقط كسلًا صحفيًا أو ضعفًا في الوصول للمصادر الفلسطينية، بل يعكس

أيضًا إطارًا معرفيًا موروثًا لا يزال يحكم تمثيل الفلسطينيين في الخطاب الإعلامي الغربي؛ إذ يرى الفلسطينيون ضحايا غير جديرين بالثقة أو التعاطف، ويمنح الرواية الإسرائيلية شرعية تلقائية بوصفها «رواية الدولة الديمقراطية الحليفة للغرب».

” المراجع

(1) <https://www.ohchr.org/ar/press-releases/2024/07/un-experts-declare-famine-has-spread-throughout-gaza-strip>

(2) <https://www.icj-cij.org/case/192>

(3) <https://www.ipcinfo.org/ipcinfo-website/alerts-archive/issue-97/en/>

(4) <https://www.reuters.com/world/middle-east/entire-population-gaza-continues-face-critical-risk-famine-global-hunger-monitor-2025-05-12/#:~:text=The%20IPC%20analysis%20found%20that,or%20%22catastrophic%22%2C%20levels.>

(5) <https://www.hrw.org/ar/news/2023/12/18/israel-starvation-used-weapon-war-gaza>

(6) <https://edition.cnn.com/2025/04/25/middleeast/un-wfp-gaza-food-israel-intl/index.html>

(7) <https://www.bbc.com/news/articles/czrv5rl73zdo>

(8) <https://www.reuters.com/investigates/special-report/famine-conditions-gaza/>

(9) <https://edition.cnn.com/2025/04/25/middleeast/un-wfp-gaza-food-israel-intl/index.html>

(10) <https://www.bbc.com/news/articles/czrv5rl73zdo>

(11) <https://www.nytimes.com/2024/04/11/world/middleeast/gaza-famine-hunger-crisis.html>

(12) <https://www.theguardian.com/commentisfree/2025/may/04/the-guardian-view-on-israels-aid-blockade-of-gaza-hunger-as-a-weapon-of-war>

(13) <https://institute.aljazeera.net/en/ajr/article/decolonise-how-humanitarian-journalism-no-ordinary-journalism>



من «إعلان وفاة» إلى «مرثية».. كيف تطور النعي إعلاميا؟

المحفوظ فضيلي

أصبح النعي الإعلامي للشخصيات العامة المؤثرة نمطا / جنسا صحفيا راسخا في الكثير من المؤسسات الإعلامية العالمية يتولاه كبار الصحفيين وأكثرهم خبرة ومعرفة. كيف تطورت هذه الممارسة وما أبرز سماتها المهنية؟ وإلى أي مدى يعتبر «تجهيز» النعي المسبق مقبولا من زاوية المعايير الأخلاقية؟

بعد فترة قصيرة فقط من موت ملكة بريطانيا إليزابيث الثانية، نشرت شبكة بي بي سي البريطانية نعيًا مطولاً يؤرخ لأهم اللحظات في مسارها. (1) كان النعي مبرمجا ضمن خطة واسعة للشبكة لمتابعة خبر موت الملكة، سُميت «جسر لندن».

تشكل أخبار الوفيات جزءاً أساسياً من مضامين صناعة الإعلام عبر التاريخ، لكن معالجتها تطورت شكلاً ومضموناً وفق تحولات الصحافة تقنيا وفنيا وأسلوبيا، وكذلك وفق اهتمامات وأولويات الجمهور في مختلف الأزمنة والأمكنة والسياقات الثقافية والسياسية.

وفي أولى التجارب الصحفية المرتبطة باختراع المطبعة بألمانيا في القرن الرابع عشر، كان للوفيات حيزها بشكل موجز للغاية، قبل أن تتطور في القرون اللاحقة في الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا إلى شكل إعلانات موجزة.

وفي خضم الثورة الصناعية وما رافقها من تقدم علمي وتحولات اقتصادية وسياسية، بدأت الصحف في الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا تولي الموضوع اهتماماً أكبر وأصبحت تنشر - إضافة لإعلانات الوفاة الموجزة - مواد نعي بشكل أوسع، تتضمن معلومات أوفر عن الشخص الراحل وعن تشييع جنازته.

وزادت أهمية أخبار الوفيات في الولايات المتحدة على إيقاع الحرب الأهلية (1861-1865) ضمن الحاجة لإخبار الناس عن أقاربهم الذين قتلوا في المعارك.

وشكلت تلك المرحلة منعطفاً نحو اكتساح أخبار الوفيات مساحة

أوسع في الممارسة الصحفية وبدأت تتحول تدريجياً من مادة إعلانية إلى مادة صحفية متكاملة، قبل أن تترسخ في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

حرصت نيويورك تايمز في ممارستها على التمييز بين إشعار الوفاة كنص معلوماتي قصير غالباً ما يكون مأجوراً باعتباره مادة ترويجية والنعي الذي يدخل ضمن اختصاص قسم الوفيات وفق ضوابط تحريرية وموضوعية وأسلوبية متفق عليها في إطار الخط التحريري العام للصحيفة، وتوجهاتها وخلفياتها السياسية والإيديولوجية.

تجارب حديثة

وفي تجليات النعي في الصحافة المعاصرة، تفرض جريدة نيويورك تايمز الأميركية نفسها ضمن أولى المنابر التي أفردت حيزاً خاصاً لهذا الفن الصحفي منذ انطلاقتها في منتصف القرن التاسع عشر. وطورت الصحيفة ذلك النهج إلى أن بات لها قسم خاص يشرف عليه محرر متمرس يضم صحفيين ذوي خبرات واسعة وتجارب طويلة. وتحرص الصحيفة في ممارستها على التمييز بين إشعار الوفاة (نص معلوماتي قصير غالباً ما يكون

مأجوراً باعتباره مادة ترويجية) والنعي الذي يدخل ضمن اختصاص قسم الوفيات وفق ضوابط تحريرية وموضوعية وأسلوبية متفق عليها في إطار الخط التحريري العام للصحيفة، وتوجهاتها وخلفياتها السياسية والإيديولوجية.

كما تحرص الصحيفة على التمييز بين النعي وبين الرثاء. ويرى وليام ماكدونالد رئيس قسم الوفيات في نيويورك تايمز منذ عام 2006 في مقال توضيحي خاص أن مواد النعي يكتبها صحفيون متخصصون في شأن النعي (obituarists) لتسليط الضوء على «أهمية الشخص الراحل وما خلفه من أثر والقصة التي يجسدها». (2)

نعي أم رثاء؟

على هذا النحو فإن تكريم الموتى ورثاؤهم متروك لمن يصفهم وليام ماكدونالد بالرتائين أو كتّاب المراثيات (eulogists)، وهم عادة مقربون من الراحل عائلياً أو فكرياً أو إيديولوجياً. وغالباً ما تركز مواد الرثاء على مناقب الراحل وخصاله وتكون ذات طبيعة ذاتية وفيها أحياناً نفس أدبي، وقد تكون من باب العرفان والوفاء للشخص الفقيد.

ومن أصل عشرات آلاف الأشخاص الذين يتوفون يومياً، لا تنشر صحيفة نيويورك تايمز تقريباً سوى ثلاث مواد «نعي» يومياً. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: ما هي الآلية المعتمدة لانتقاء من يستحقون «النعي» وما الهدف من «النعي» أصلاً؟

في هذا السياق يقول وليام ماكدونالد إنه ليس من اختصاص الصحيفة أن تصدر الأحكام - لا إيجاباً ولا سلباً - على المتوفين ممن يستحقون النعي، وإنما يكون التركيز في الغالب على

وفاتها عندما تحصل فعليا.

أما في حال التخطيط الجديد والمحكم، فإن إعداد مود النعي سلفا يكون ذا جدوى مهنية عالية؛ إذ يوفر للمتلقي بسرعة مادة عميقة وثرية عن الشخصية الراحلة وإنجازاتها سلبا أو إيجابا.

ووفقا لويليام ماكدونالد فإن صحيفة نيويورك تايمز أعدت سلفا 1850 مادة نعي في حين تحتفظ صحيفة واشنطن بوست بنحو 900 منها، وفقا لمحرر النعي آدم بيرنشتاين.

وعلى سبيل المثال فقد نشرت نيويورك تايمز يوم 23 مارس 2022 على موقعها الإلكتروني نعيًا مطولا لوزيرة الخارجية الأميركية مادلين أولبرايت، بعد دقائق قليلة من إعلان وفاتها. (4)

وتشير الكثير من القرائن إلى أن النعي كان شبه جاهز؛ من قبيل حجمه (حوالي 3000 كلمة) وإشارات في متن المقال إلى أن العديد من الشهادات في حق الراحلة أخذت مسبقا للنشر في هذه المناسبة.

وحمل ذلك النعي توقيع روبرت ماكفادن الذي اشتغل في الصحيفة 63 عاما، (5) وجاء في نبذة عنه بموقع الجريدة بأنه «في العقد الأخير قبل تقاعده في سبتمبر 2024، كان كاتبًا لمواد النعي الاستباقية التي يتم إعدادها للأشخاص البارزين أثناء حياتهم حتى يمكن نشرها بسرعة بعد وفاتهم».

وتضمّن نعي أولبرايت عرضا وافيا لأهم محطات حياتها وأبرزها، كما ورد في العنوان، أن الراحلة، ذات الأصول التشيكية، كانت أول امرأة تتولى وزارة الخارجية في الولايات



بتتبع مكانة مواد النعي في العديد من كبريات الصحف العالمية الناطقة بالإنجليزية والفرنسية وغيرها وبالنظر إلى التطور التحريري المتصل بالاهتمام بمواد النعي، يمكن القول إن «النعي» يتجه إلى أن يصبح شبه نوع/ جنس صحفي (تصوير: ديبندو دوتا - غيتي).

التحريرية؛ إذ يحصل أحيانا أن تلك المواد قد ترى طريقها للنشر بالخطأ فتكون النتيجة عكسية وكارثية بالمقاييس الخبرية (نشر خبر غير صحيح) والتحريرية (نشر مادة غير مكتملة الصياغة والتحرير).

وتشير إحصائية لصحيفة نيويورك تايمز أن الموقع الإلكتروني لإذاعة فرنسا الدولية نشر عن طريق الخطأ نحو 100 نعي مكتوب مسبقا لشخصيات بارزة. (3)

لكن الحالة الأكثر تعبيرا عن أخطار تهيئة مواد النعي مسبقا هو بث تلفزيون بي بي سي بالخطأ خبر وفاة إليزابيث الثانية ملكة بريطانيا قبل رحيلها، وذلك من فرط الإعداد المتواصل منذ عدة عقود (ضمن خطة داخلية بعنوان «عملية جسر لندن») لتغطية

منجزهم بغض النظر عن الموقف الأخلاقي منهم، اعتمادا على القيمة الإخبارية للشخص المعني.

النعي الاستباقي

وباتت كتابة مواد النعي في نيويورك تايمز وغيرها من المنابر الإعلامية العريقة والرصينة، تقليدا راسخا إلى درجة أنها تقوم بذلك استباقيا في بعض الأحيان وتبادر لإعداد مقالات نعي لأشخاص غادروا الفضاء العام أو اختفوا من سماء الأخبار لهذا السبب أو ذاك (إبعاد، إقصاء، تقاعد، اعتزال، مرض، تقدم في السن) وتنشرها فور وفاة صاحبها.

لكن تجهيز مواد النعي سلفا ينطوي على الكثير من المخاطر

المتحدة وكان ذلك في عام 1997 في ظل إدارة الرئيس بيل كلينتون.

أما اللحظات الأكثر درامية، كما جاء في النعي، فهي الظروف التي غادرت فيها الطفلة مادلين بلدها تشيكوسلوفاكيا (كما كانت تسمى آنذاك) رفقة أسرتها في أجواء الحرب العالمية الثانية هربا من لهيب النازية.

ولم تكشف مادلين أولبرايت - وفق النعي - حقيقة أصولها اليهودية إلا بعد أن أصبحت وزيرة للخارجية؛ إذ إن والديها اعتنقا الكاثوليكية اتقاء شر النازيين أثناء الحرب العالمية الثانية، وربّيا أطفالهما عليها دون أن يخبروهم عن أصلهم اليهودي.

«نعي» بنفس تاريخي

وبأسلوب يزواج بين التقشف والتكثيف من جهة، والعمق والنفس الأدبي من جهة أخرى، أفردت أسبوعية الإيكونوميست البريطانية لمواد النعي مكانا قارًا في الصفحة الأخيرة، وفق ضوابط إخراجية وبصرية وتحريرية ثابتة.

ورغم أنّ مواد النعي في الإيكونوميست - على غرار باقي المقالات الأخرى - غير موقّعة، فإنّ المجلة تشير في التعريف بطاقتها إلى أن رو التي التحقت بالمجلة عام 1976 هي من تتولى كتابة تلك المواد منذ عام 2003 بأسلوب يجمع بين النفس الأدبي والسرد والصنعة الصحفية والهاجس التاريخي. (6)

وعن طريقة عملها واختياراتها، تقول آن رو - وهي حاصلة على دكتوراه في التاريخ وألفت عددا من

كتب السيرة الغيرية -: «كل أسبوع أروي قصة حياة استثنائية؛ موضوعها شخصية معروفة أو شخصية أقل شهرة لكنها لا تقل استثنائية».

وفي حلقة نقاشية مع القراء على إحدى الحسابات الرقمية للمجلة، تقول آن رو: «أحاول كل أسبوع أن ألتقط جوهر شخص وأروي قصة حياته». (7)

على هذا النحو فإن تكريم الموتى وراثتهم متروك لمن يصفهم وليام ماكدونالد بالرائيين أو كتّاب المراثيات (eulogists)، وهم عادة مقربون من الراحل عائليا أو فكريا أو إيديولوجيا. وغالبا ما تركز مواد الرثاء على مناقب الراحل وخصاله وتكون ذات طبيعة ذاتية وفيها أحيانا نفس أدبي، وقد تكون من باب العرفان والوفاء للشخص الفقيد.

وعلى سبيل المثال، فإن نعي الإيكونوميست لمادلين أولبرايت كان مختلفا عن مقاربة نيويورك تايمز شكلا ومضمونا؛ (8) إذ لم تجد المجلة البريطانية عن قاعدتها بشأن الشكل والحجم (حوالي 1000 كلمة) وركزت على بصمتها النسائية وأسلوبها الخاص في قيادة الدبلوماسية الأميركية.

وتتجه المجلة البريطانية أحيانا إلى كسر القواعد المتعارف عليها

في هذا المجال؛ فقد نعت في صيف عام 2009 سمكة اسمها بنسون كانت الأشهر في إنجلترا ونفقت وعمرها 25 عامًا. (9)

وفي الصحافة العربية، وتحديدًا في الصحف العريقة (الأهرام المصرية، النهار اللبنانية..) ومواقعها الإلكترونية، لم يترسخ بعد فن النعي شكلا ومضمونا بالشكل المعمول به في كبريات الصحف العالمية.

والدارج أن تلك الصحف تتناول وفيات المشاهير من أهل السياسة والأعمال والرياضة والفنون بتغطيات متباينة باعتماد مختلف الأجناس الصحفية، إخبارا وتعليقا وتحليلا، ويتسع الأمر أحيانا إلى استقاء شهادات في حق الراحلين، والتوقف مليا عند محطات دالة أو مواقف خاصة في مسار الراحلين.

ويرى الأكاديمي المصري حسني محمد نصر في مقال عن الموضوع أن صحافة النعي «يمكن أن تمثل خطوة مهمة في اتجاه «أنسنة الصحافة»، (10) وإعادة القراء إليها؛ إذ إن صحافة النعي الجيدة التي تمزج بين التاريخ وبين السيرة الذاتية وتثير مشاعر الحنين إلى الماضي يمكن أن تجذب عددا كبيرا من القراء».

وبخلاف «النعي» بصيغته الصحفية والتحريرية، تشترك معظم الصحف العربية مع نظيرتها في الغرب بنشر إعلانات الوفيات مقابل مبلغ مادي في إطار تجاري ربحي صرف.

وتفتح صحيفة الأهرام - على غرار صحف ومواقع عربية كثيرة - صفحاتها وموقعها الإلكتروني لمواد النعي من خلال وكيل إعلاني رسمي للجريدة يساعد المعنيين بالموضوع على نشر خبر نعي أو تعزية مقابل مصاريف معينة.

ويطرح تطور أخبار الوفيات من مواد ذات طابع إعلاني وتجاري صرف إلى مادة صحفية قائمة بذاتها السؤال الأكاديمي التالي: هل النعي فن صحفي أو نوع/ جنس صحفي مكتمل الأركان على غرار باقي الأنواع/ الأجناس الأخرى من افتتاحية وتحقيق وروبرتاج وعمود ومقال، وبروفایل (صورة قلمية) وغيرها؟

في كتابه المرجعي بعنوان «الأجناس الصحفية - مفتاح الإعلام المهني»، يصنف الأكاديمي المغربي عبد الوهاب الرامي إعلانات الوفيات إلى جانب إعلانات الولادات والزواج ضمن ما يسميه الأجناس غير الصحفية وتحديدًا في مجال الإشهار والتسويق والترويج. ولم يشر الخبير الإعلامي المغربي بشكل واضح وصريح إلى «النعي» باعتباره جنسًا قائمًا بذاته، ولم يصنفه حتى ضمن الأجناس غير الصحفية. (11)

لكن النوع الأقرب إلى «النعي» ضمن الأجناس الصحفية المتعارف عليها مهنيًا وأكاديميًا هو البورتريه (صورة قلمية) بما يتطلبه من مهارات تتمثل - حسب نفس الكتاب - في «القدرة على التقاط الجزئيات الدالة وتعقب المسارات، وامتلاك أدوات القراءة النفسية والنفس-اجتماعية، والتمتع بمؤهلات أسلوبية». (12)

ويمكن الفارق بين البورتريه والنعي في أن الأول موضوعه شخص على قيد الحياة ويركز على الكثير من ملامحه وإنجازاته ومواقفه ومناطق الظل والضوء في حياته بما يتطلبه ذلك من وصف، وسرد وتركيب وتجميع. أما النعي فيكون التركيز فيه منصبا في الغالب على مناقب الراحل ومنجزه وما سيتركه من أثر مادي ومعنوي، سواء كان إيجابيا أو سلبيا.

ومن ناحية المضمون، يضع الأكاديمي المصري حسني محمد

نصر مواد النعي ضمن «الصحافة الإنسانية التي تولي الإنسان اهتماما أكبر في حياته وعند وفاته».

ويعتقد محمد نصر في مقال عن الموضوع أن صحافة النعي «إذا قُدمت بشكل جيد وجاذب يمكن أن تسهم في عودة القراء إلى الصحافة بمنصاتها المختلفة»، (13) داعيا الصحافة العربية إلى الاهتمام بأن تكون «أكثر إنسانية، عبر الاهتمام بصفحات نعي الموتى من المشاهير وغير المشاهير من أفراد المجتمع، وعدم تجاهل من رحلوا عن عالمنا».

قريبا من الأدب

وبتتبع مكانة مواد النعي في العديد من كبريات الصحف العالمية الناطقة بالإنجليزية والفرنسية وغيرها وبالنظر إلى التطور التحريري المتصل بالاهتمام بمواد النعي وما



إذا شئنا توسيع مجال المقارنة بين النعي وفنون أخرى من الكتابة والإبداع، فإن ما يتبادر للذهن هو أوجه التشابه الكثيرة بين النعي وفن السيرة الغيرية (biography) باعتبارها «مسار حياة» وفق التعريف الكلاسيكي للسيرة بمفهومها الأدبي (كريستوف سودر - غيتي).

يحظى به الموضوع من عناية واهتمام في إطار هيكلية المؤسسات، يمكن القول إن «النعي» يتجه إلى أن يصبح شبه نوع/ جنس صحفي.

لكن الحالة الأكثر تعبيراً عن أخطار تهئية مواد النعي مسبقاً هو بث تلفزيون بي بي سي بالخطأ خبر وفاة إليزابيث الثانية ملكة بريطانيا قبل رحيلها، وذلك من فرط الإعداد المتواصل منذ عدة عقود (ضمن خطة داخلية بعنوان «عملية جسر لندن») لتغطية وفاتها عندما تحصل فعلياً.

أما في حال إمعان النظر في أسلوب وصياغة ولغة وبناء بعض مواد النعي عندما تحمل توقيع صحفيين مخضرمين يتمتعون بتجربة كبيرة، لا يسع المهتم أو القارئ إلا أن يعتبر تلك «المقالات» نوعاً صحفياً مستقلاً له خصائصه الأسلوبية والتركيبية والسردية. وإذا شئنا توسيع مجال المقارنة بين النعي وفنون أخرى من الكتابة والإبداع، فإن ما يتبادر للذهن هو أوجه التشابه الكثيرة بين النعي وفن السيرة الغيرية (biography) باعتبارها «مسار حياة» وفق التعريف الكلاسيكي للسيرة بمفهومها الأدبي.

ويجد هذا التشابه جزءاً من صدقيته المهنية في كون الكثير من كتاب السير الغيرية هم في أحيان كثيرة صحفيون تخصصوا في

اشتغل في عدة منابر مغربية، قبل الانتقال إلى قطر عام 2003 حيث أمضى في موقع الجزيرة نت 17 عاماً تولى خلالها عدة مهام وتم انتدابه لتغطية عدد من مناطق النزاع. وفي عام 2020 انضم إلى تلفزيون قطر قبل أن يلتحق في العام التالي بإحدى المنصات الرقمية التابعة لقناة الحرة في الولايات المتحدة.

مجالات معينة وأصبحوا مقربين بطريقة أو بأخرى من شخصيات متميزة في ذلك المجال وحولوا ذلك القرب إلى مدخل لكتابة سيرها بعد رحيلها أو قبل مماتها أحياناً.

إعلامي مغربي مقيم بالولايات المتحدة، خريج المعهد العالي للإعلام والاتصال بالرباط عام 1997.

المراجع

- (1) <https://www.bbc.com/news/uk61605149->
- (2) <https://www.nytimes.com/08/03/2018/obituaries/overlooked-from-the-death-desk-why-most-obits-are-still-of-white-men.html>
- (3) https://www.washingtonpost.com/lifestyle/media/media-advance-celebrity-obituaries/36/16/11/2021d9a79a-1596-11ec-b-976f4a43b740aeb_story.html
- (4) <https://www.nytimes.com/23/03/2022/us/madeleine-albright-dead.html>
- (5) <https://www.nytimes.com/by/robert-d-mcfadden>
- (6) <https://mediadirectory.economist.com/people/ann-wroe/>
- (7) https://www.reddit.com/r/IAmA/comments/b66bj7/hello_im_ann_wroe_and_ive_been_writing_the/
- (8) <https://www.economist.com/obituary/02/04/2022/madeleine-albright-saw-herself-as-an-ambassador-for-freedom>
- (9) <https://www.economist.com/obituary/13/08/2009/benson>
- (10) <https://shorturl.at/6Fpdn>

(11) الرامي، عبد الوهاب. الأجناس الصحفية: مفتاح الإعلام المهني. الرباط: المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو، 2011.

(12) الرامي، الأجناس الصحفية: مفتاح الإعلام المهني، 38.

(13) <https://shorturl.at/4utqo>



ظاهرة «تجنب الأخبار».. هل بتنا نعرف أكثر مما ينبغي؟

وسام كمال

رصدت الكثير من التقارير تفشي ظاهرة «تجنب الأخبار» بسبب الضغوط النفسية الشديدة وصلت حد الإجهاد النفسي نتيجة تلقي كميات ضخمة من الأخبار والمعلومات. ما تأثيرات هذه الظاهرة على غرف الأخبار؟ وكيف يمكن التعامل معها؟

قبل عقود تنبأ المفكر الكندي مارشال ماكلوهان بأن تطور وسائل الإعلام سيحول العالم الشاسع إلى «قرية صغيرة»، ومن مشاكل هذه القرية أن أهلها منشغلون ببعضهم البعض، وفاقدة أحدهم تنخر في وجدان الآخر. فعندما وقع زلزال في تركيا تحولت أنظار العالم إلى المأساة الإنسانية، وعندما اجتاحت إعصار ميلتون ولاية فلوريدا الأمريكية ظهرت دعوات في أنحاء الأرض للصلاة والدعاء من أجل سكان الولاية، وقد تابع العالم لحظة بلحظة اندلاع الحرب الأوكرانية الروسية ومحنة المدنيين واللاجئين، وفطرت مأساة غزة قلوب الملايين حول العالم وأحدثت سلسلة من الزلازل السياسية.

يسهل هذا التقارب العالمي التواصل ويعزز أهمية متابعة الأخبار الدولية إلى قدر يتجاوز المحلية أحياناً، خاصة أن بعض الأحداث أصبحت مترابطة ولها تأثيرات على أي مواطن في كل العالم.

هكذا زادت الحمولة النفسية على المتابع بسبب متابعة الكثير من الأخبار التي قد لا تتصل به بشكل مباشر. فهل بتنا نعرف أكثر مما ينبغي؟

39٪ هي نسبة الأشخاص الذين يتجنبون الأخبار في عام 2024 على مستوى العالم، مقارنة بنسبة 29 بالمائة في عام 2017، وفقاً لتقرير (1) معهد رويترز لدراسات الصحافة. خلال العقد الماضي انتشرت ظاهرة إرهاق الأخبار «News Fatigue»، وهي حالة إجهاد نفسي تحدث نتيجة تلقي كميات ضخمة من الأخبار والمعلومات، والتدفق المتواصل للمحتوى الإخباري عبر وسائل الإعلام ومنصات وسائل التواصل الاجتماعي. برزت هذه الظاهرة بشدة خلال أزمة

كورونا مع تزايد حالات الوفيات والإحساس الطاعني بتوقف الحياة واقترب نهاية العالم، ثم تبعها الحرب الروسية الأوكرانية، والحرب الإسرائيلية على غزة، وما تلاها من مأس وإبادة للمدنيين.

يختلف الناس في كيفية تلقي الأخبار؛ فبعضهم لا يتأثر بشدة من متابعة الأحداث ولا تربكه وجدانياً، وآخرون تصيبهم هشاشة نفسية من متابعتها، وقد تشور لدى البعض رغبة في رفع الظلم أو الأذى عن صاحب القصة، أو لحادثة فساد أو حتى «ترند» مستفز، بل إن الناس حتى الصحفيين - ولا أستثنى نفسي - تساورهم رغبة من فترة لأخرى في التوقف عن ملاحقة الأخبار للحفاظ على صحتهم النفسية.

” تتسرب حالة من الإرباك النفسي والتوتر إلى المتابع نتيجة التعرض إلى شحنات عاطفية متضاربة، وتتسبب الأخبار السلبية في التوتر والقلق الذي قد يصل بالمرء إلى الاكتئاب وربما الوسواس القهري، ودوامه من المشاعر المظلمة. ذلك لأن الجمهور لم يعد يتابع الحدث فقط، ولكنه يعيش القصص الإنسانية وربما يختبر مشاعر أبطالها وضحاياها.

تخمة استهلاك الأخبار

كان القارئ قبل عقدين يشتري صحيفة أو اثنتين، ويتابع نشرة إخبارية على شاشة التلفزيون،

وتنتهي في العادة متابعته للأخبار عند ذلك الحد. أما الآن فتشكل كل وسيلة إعلامية حديثة عادات جديدة لدى جمهورها، وربما يكون الهاتف أكثر الوسائل تأثيراً في حياة مستخدميها. يفرض تدفق الأخبار وتداولها على كل المنصات والوسائط حالة تكثيف في متابعة الأخبار والاستمرار في مشاهدة الحدث عدة مرات على مدار أيام حتى تنتهي ذروته.

على هذا الأساس، بدأ الحديث عن «قلق فومو FOMO»، أي اضطراب الخوف من تفويت أي شيء «Fear Of Missing Out» إلى ملاحقة الأخبار وزيادة استهلاكها عبر منصات التواصل الاجتماعي. ويمكن الحديث في هذا السياق على نوعين من التخمة: زيادة في عدد الأخبار، وتكثيف في المضمون؛ وهذا يخلق حالة من الضغط النفسي أحياناً على المتلقي، خاصة مع كثافة استخدام الإنترنت بصفة عامة والهاتف بصفة خاصة.

لقد رصدت إحصائية حديثة في 2024 (2) أن متوسط استخدام الإنسان للإنترنت يومياً على مستوى العالم 6 ساعات و38 دقيقة بينما تؤدي عادات التصفح دوراً كبيراً في زيادة استهلاك الأخبار؛ على سبيل المثال يتفقد الأمريكيون هواتفهم في اليوم 144 مرة وفقاً لإحصائية في عام 2023، (3) وكلما زادت مرات تفقد الهاتف؛ زاد معدل استهلاك الأخبار.

كما رصدت نتائج دراسة جماعية (4) أجريت عام 2020 على 503 طلاب جامعيين (54,5٪ إناث، 45,5٪ ذكور) تتراوح أعمارهم بين 18 و40 عاماً، الارتباط بين الخوف من تفويت شيء وإدمان الأخبار عبر الإنترنت، وبالطبع لم



واضحة حول آلية عمل الخوارزميات على منصاتها لعدة أسباب: على رأسها دفع منتجي المحتوى إلى تأدية مبالغ مالية من أجل وصول منشوراتهم إلى المستخدمين لزيادة التفاعل. كما يقيد المناخ السياسي السائد المحتوى الإعلامي وفقا لتحيزاته؛ فقد اعترفت منصة إكس (تويتر سابقا) بتحيز خوارزمياتها للسياسيين اليمينيين عام 2021. (6) أما في يناير 2025 (7) أقر مارك

إلى شحنات عاطفية متضاربة، وتتسبب الأخبار السلبية في التوتر والقلق الذي قد يصل بالمرء إلى الاكتئاب وربما الوسواس القهري، ودوامة من المشاعر المظلمة. ذلك لأن الجمهور لم يعد يتابع الحدث فقط، ولكنه يعيش القصة الإنسانية وربما يختبر مشاعر أبطالها وضحاياها أثناء مشاهدة فيديوهات إخبارية للدقائق الأخيرة في حياة إنسان قبل غرقه أو انتحاره، ولحظات سقوط طائرة أو اصطدام قطار إضافة إلى سيل من مشاهد الشهداء والمصابين والمكلمين.

تشير دراسات عدة إلى أن متابعة الأحداث العنيفة تؤثر على الصحة النفسية للجمهور وتخلق استجابات عاطفية مكثفة ونظرة مشوهة إلى العالم، وتزيد من القلق لأنها تجعل العالم يبدو أكثر عدائية ومليئاً بالجريمة، ويتسبب الشعور بالقلق في اضطرابات النوم وصعوبات التركيز والاكتئاب. ولعله من المهم الاستشهاد بنظرية مارشال ماكلوهان حول القرية الصغيرة في سياق الكثير من الأزمات التي عرفها العالم في السنوات الأخيرة مثل الحرب الروسية الأوكرانية التي ألقت بظلالها على أسعار القمح وبعض المنتجات حول العالم، وكذلك تأثرت السوق العالمية، وتأثرت فروع الشركات الشهيرة العابرة للقارات مثل سلاسل ستاربكس وماكدونالدز وكنتاكي وكوكاكولا بالمقاطعة بسبب الحرب على غزة.

لذلك، زادت الحمولة النفسية على المتابع بسبب متابعة الكثير من الأخبار التي قد لا تتصل به بشكل مباشر. فهل بتنا نعرف أكثر مما ينبغي؟

على سبيل المثال تتحفظ شركات مواقع التواصل بشأن الإدلاء بمعلومات

تنف الدراسة تأثير جائحة كورونا وقتذاك، وفي عام 2022 تناولت دراسة أخرى (5) المخاطر النفسية لاضطراب «فومو» الذي تتربح منه شركات مواقع التواصل الاجتماعي تريبليونات الدولارات، واقترح الباحثون المشاركون فيها توعية المستخدمين بتجربة «متعة التفويت» the joy of missing out (JOMO) بعد أن أنهكهم نفسيا وعقليا اضطراب الخوف من تفويت شيء.

خلال العقد الماضي انتشرت ظاهرة إرهاق الأخبار «News Fatigue»، وهي حالة إجهاد نفسي تحدث نتيجة تلقي كميات ضخمة من الأخبار والمعلومات، والتدفق المتواصل للمحتوى الإخباري عبر وسائل الإعلام ومنصات وسائل التواصل الاجتماعي.

بناء عليه، لا تخلو متابعة الأخبار السلبية من تبعات نفسية، فيمكن تخيل الحالة النفسية التي قد تصيب شخصا تابع عدة قصص قبل نومه أو بداية استيقاظه من النوم: زواج أحد الأقارب، وفاة صديق، غرق قارب مهاجرين، لحظة هبوط كارثي لطائرة، بكاء أم على طفلها، طفلة فلسطينية تحمل أختها المصابة، تصريح مثير لمسؤول، طوفان من أخبار الزواج والطلاق للفنانين، ما الأثر النفسي الذي يتركه هذا الكم من المنشورات المختلفة في نفسه؟

تتسرب حالة من الإرباك النفسي والتوتر إلى المتابع نتيجة التعرض



39٪ هي نسبة الأشخاص الذين يتجنبون الأخبار في عام 2024 على مستوى العالم، مقارنة بنسبة 29 بالمئة في عام 2017، وفقا لتقرير معهد رويترز لدراسات الصحافة (شترستوك).

الأخبار المضللة الاعتماد على وسائل الإعلام الرئيسية لدى قطاعات من الجمهور.

لا توجد نصائح قاطعة لمواجهة هذه الظاهرة، بيد أنه «لكل فعل، رد فعل، مساو له في المقدار ومقابل له في الاتجاه»، هذا أحد قوانين الفيزياء، ولكنه ينطبق على الأخبار أحيانا مع تخمة المتابعة وإدمان التكنولوجيا؛ فقد

على هذا النحو، يتيح فضاء الإنترنت الحصول على المعلومات بسهولة وتدفق الأخبار والمحتوى لحظيا لكن هذه النعمة تنقلب أحيانا إلى نقمة مع فوضى نشر الأخبار والفيديوهات والصور المضللة عن عمد أو بشكل غير مقصود. وقد يتسبب اختلاط المحتوى الجيد بغير الجيد في خلق حالة من التشكك لدى بعض المتلقين في الأخبار على الإنترنت، ولذا أعادت

زوكربيرغ بقيام شركة ميتا بوضع قيود على المحتوى وعبر عن خطته للتخفيف منها مستقبلا. ورغم غياب معلومات دقيقة حول آلية عمل خوارزميات الشبكات الاجتماعية، إلا أن الملاحظة اليومية لتدفق المحتوى على المنصات تشير إلى أن المنشورات والفيديوهات الأكثر تفاعلا تحظى بأولوية على الصفحة الرئيسية (التايم لاين timeline) لدى المستخدمين.

ظهرت نصائح للحد من الإفراط في المتابعة وتحسين النفس من الأخبار المؤلمة، وسبل الاستشفاء النفسي من التأثيرات السلبية لمواقع التواصل، فيما أصبح يسمى الصيام عن «الدوبامين» (8)

تناولت إحدى الدراسات المخاطر النفسية لاضطراب «فومو» الذي تتربح منه شركات مواقع التواصل الاجتماعي تريبلونات الدولارات، واقترح الباحثون المشاركون فيها توعية المستخدمين بتجربة «متعة التفويت» the joy of missing out (JOMO) بعد أن أنهكهم نفسيا وعقليا اضطراب الخوف من تفويت شيء.

الجمهور أيضا، وعدم الاكتفاء بالفيديوهات الرائجة والأحداث اللحظية فقط، بل لا بد من النبش عن موضوعات تهم الجمهور وتلهمه وتطور حياته، مثل قصص النجاح والأخبار المجتمعية والزوايا الإنسانية في التغطيات اليومية، والأخبار التي تسلط الضوء على فرص جديدة في مجالات الحياة المختلفة كالعمل والاقتصاد والسفر ومحاربة الأمراض وقرب نهاية الكوارث والحروب. كما أنه من الضروري مراجعة السياسة التحريرية للأخبار من فترة لآخرى؛ من حيث اختيار الموضوعات وطريقة إنتاج القصص ونشرها، مع وضع المتابعين الهشين نفسيا في الاعتبار، وذلك من خلال المحددات التالية:

● وضع تحذير في بداية الفيديوهات التي تحتوي على مشاهد قاسية وعدم الإفراط فيها وإخفاء أجزاء الجسد المصابة والدماء.

● انتقاء القصص الإخبارية بمسؤولية اجتماعية وعدم الانجراف دوما وراء «الترند».

● استخدام خاصية القصص اليومية «الستوري» في الأخبار التي لا ينبغي أن تعيش طويلا على الصفحة الرئيسية «التايم لاين Timeline».

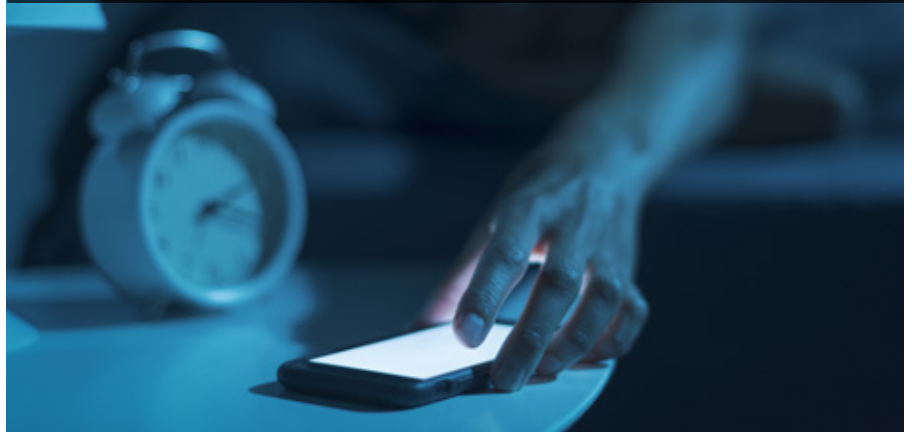
● عقد اجتماعات تحريرية لمناقشة المحتوى، والبحث عن خطة مناسبة تحافظ على انتباه القارئ وتخاطب اهتماماته، وتقدم فائدة وقيمة مضافة إليه.

3- تخصيص المحتوى وإصدار نسخة إخبارية مخففة:

تتيح تطبيقات بعض الصحف الإخبارية تخصيص المحتوى للقارئ

وأعتقد أن ظاهرة تجنب الأخبار ليست مقتصرة على محاولة الهروب من الإحباط والطاقة السلبية التي تبثها الأخبار الحزينة أو المفجعة فقط، وإنما مرتبطة بعوامل أخرى مثل إدمان التكنولوجيا والإنترنت وانتشار التوعية بضرورة إدارة وقت استخدام الهواتف وتصفح الإنترنت ومحاربة التششت وإضاعة الوقت. وعلى الصحفيين أن يأخذوا في الاعتبار التأثيرات النفسية السلبية لضغط الأخبار المفجعة على المتلقين. ولعله من الحلول المطروحة التوازن في التغطية بين الأحداث المأساوية والقصص «الإيجابية» وبث بعض الأمل في نفوس الناس وسط طوفان الأخبار السلبية. ولا أقصد بالأخبار السارة القفز على القيمة الخبرية أو إعادة ترتيب الأجندة داخل غرف الأخبار؛ فصحيح أن الأحداث تفرض نفسها على أجندة الصحفيين، وتقود القيم الخبرية عملية انتقاء الأخبار، ولكن المسؤولية الاجتماعية تقتضي على الصحفي البحث عن محتوى يحتاجه

ظاهرة تجنب الأخبار ليست مقتصرة على محاولة الهروب من الإحباط والطاقة السلبية التي تبثها الأخبار الحزينة أو المفجعة فقط، وإنما مرتبطة بعوامل أخرى مثل إدمان التكنولوجيا والإنترنت وانتشار التوعية بضرورة إدارة وقت استخدام الهواتف وتصفح الإنترنت ومحاربة التششت وإضاعة الوقت (تصوير: تشانغ بنغ - غيتي).



هذه خطوة مهمة لتوعية الجمهور بخطر انتشار الأخبار المضللة، وطريقة فرز الأخبار، وإدارة وقت استخدام وسائل الإعلام، وكيفية تجنب الوصول إلى حالة الإرهاق الإخباري، وإرشاد الأبناء والمراهقين للتعامل مع الأخبار على الإنترنت، وتقنين وقت استخدام الهواتف الذكية وانتقاء المنصات ذات المصداقية.

على الموضوعات التي يفضلها، وبهذا قد تنجح الصحف في استعادة الجمهور الهارب من الأخبار اليومية وتقلل المحتوى غير المرغوب فيه أو المؤذي لبعض المتابعين.

أرى أنه على كل وسيلة إعلامية أن تحمل على عاتقها مسؤولية التربية الإعلامية، وتثقيف جمهورها إعلامياً كجزء من رسالتها ومسؤوليتها الاجتماعية في عالم مفتوح.

بما يلبي اهتماماته، مثل تطبيق «نبض» (9) على سبيل المثال، كما تصدر بعض المواقع الإخبارية نسخاً إخبارية مخففة lite تحتوي على الأخبار المتنوعة التي تستهدف أساساً الجمهور الشاب والمراهقين، وأبرز مثال على هذا صحيفة «المصري اليوم» المصرية التي أصدرت موقع «المصري اليوم لايت»، (10) كما يمكن للصحف أيضاً أن ترسل نشرات إخبارية بشكل دوري يناسب جمهورها، تحتوي

” المراجع

(1) <https://reutersinstitute.politics.ox.ac.uk/digital-news-report/2024/dnr-executive-summary>

(2) <https://www.statista.com/statistics/1380282/daily-time-spent-online-global/>

(3) <https://www.reviews.org/mobile/cell-phone-addiction/>

(4) <https://ojcmt.net/article/online-news-addiction-future-anxiety-fear-of-missing-out-on-news-and-interpersonal-trust-contribute10822->

(5) <https://onlinelibrary.wiley.com/doi/abs/10.1111/joca.12476>

(6) <https://www.theguardian.com/technology/2021/oct/22/twitter-admits-bias-in-algorithm-for-rightwing-politicians-and-news-outlets>

(7) <https://l1nq.com/gWlnk>

(8) <https://www.aljazeera.net/lifestyle/12/3/2021/%D%85%9D%8A%7D%8B%0D%8A-7%D%8AA%D%8B%9D%8B%1D%-81%9D%8B%9D%-86%9D%8B%5D8%9A%D%8A%7D%-85%9D%8A7%D%84%9D%8AF%D%88%9D%8A%8D%8A%7D%85%9D8%9A%D%-86%9D%83%9D8%9A%D-81%9%D%8AA%D%8B%9D8%9A%D%8B4>

(9) <https://nabd.com/>

(10) <https://lite.almazryalyoum.com/>